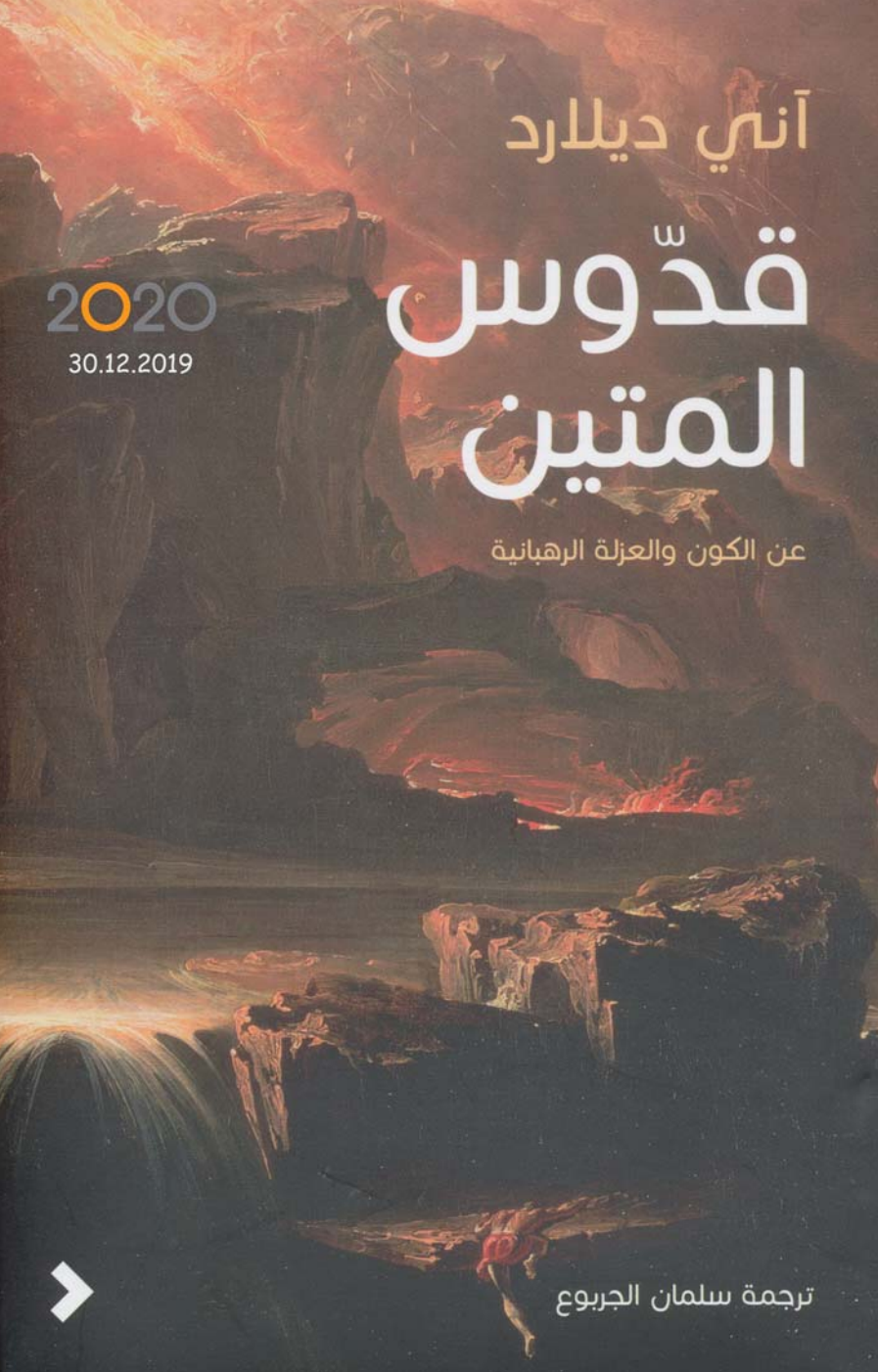

آني ديلارد

قدّوس المتين

عن الكون والعزلة الرهبانية

2020

30.12.2019

ترجمة سلمان الجربوع

آني ديلارد

قدّوس المتين

ترجمة سلمان الجربوع

قدّوس المتين

هذا الكتاب بدعم من:

مبادرة 1001 عنوان

قدّوس المتين

تأليف: آني ديلارد
ترجمة: سلمان الجربوع
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-39-147-0

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

الفصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Holy The Firm
Copyright © Annie Dillard 1977
All rights reserved

إلى غاري

«لا أحد يرتاب في الأيّام أن تكون آلهة»

إمرسون

اليوم الأول

حديث الولادة ومرشوشٌ بالملح

كلُّ يومٍ إله[1]. كلُّ يومٍ بذاته إله، والألوهةُ قائمةٌ أبدَ الدهر. وأنا أعبد كلَّ إله، أسبّح بحمد كلِّ يومٍ مع انفلاقِه، انفلاقِه متشظيًّا والتفافِهِ في الزمن مثل كومةِ قشّ، كومةِ قشٍّ بألوانٍ عديدةٍ تنتثر، سريعًا تنتثر عند الفجر فوق شقوق الجبال.

أصحو في إله. أستيقظ في ذراعين تحتضنان لحافي، إيّاي تحتضان كأحسنِ ما يمكنهما داخلَ لحافي.

(1) هوامش الكتاب للمترجم.

أحدهم قد قبّلني- الآن. أصحو، أصيح «أوه»، أنهض من الوسادة. لماذا عليّ أن أفتح عينيّ؟

أفتحُ عينيّ. يصعد الإله من الماء. رأسه يُظلّل الخليج. إنّه بيوجِت ساوند، إنّه المحيط الهادئ؛ وصدره يطلع من المروج؛ أصابعه أشجار تنّوب، جزرٌ تنزلق نديّةً من على كتفيه. جزر تنسلّ زرقاءَ من على كتفيه وتتزحلق فوق الماء، الماء الفارغ المضاء كخشبة مسرح.

يبزغ إلهُ اليوم، عيناه واسعتا المدى مرقّطتان بالغيوم. يرمي بذراعيه، ناثرًا الألوان؛ يتقوّس، لامًّا السماءَ في جعبته؛ يثب، قابضًا وباسطًا، ويكسوني مثل جلد.

* * *

تحت اللحاف عند انثناءة ركبتي تنزوي قطّة. تنهض؛ تتلوّى كي تعضّ غُرزَها المعدنيّة. اليومُ حقيقيٌّ؛ بالفعل، أشعر بطقطقته، أسمع طقطقة تركيبه تحت ركبتي.

اليومُ حقيقيّ؛ السماءُ مثبتةٌ بإحكام فوق الجبال، مقفلةٌ بأمانٍ حول الجزر، وتنغلق كإسوارةٍ مسطرةٍ على الخليج. دفقاتُ الهواء تنسكب على سقوف المزارع؛ ترتفع داخل أبواب الحظائر وتمسح برفق على نوافذها الصفراء. ينقر الهواء على يدي فتنشقّ منها الأصابع ويندفق في أغوار أذني، كُلًّا كاملًا. أسمّيه بساطةً، الحال التي تكون عليها المادّةُ سلسةً ومنعزلة.

أُبعد القطّة. أقف وأسوّي الفراش. «أوه»، أصيح، «أوه»!

* * *

أعيش شماليَّ بيوجت ساوند، في ولاية واشنطن، وحيدةً.

عندي قطّةٌ ذهبيّة اللون، تنام على ساقيّ، اسمها سمول Small. في الصباح أمازحها محدّقةً في وجهها المشدوه: هل تتذكّرين ليلةَ البارحة؟ هل تتذكّرين؟ ثم أرمي بها إلى الخارج قبل الإفطار.

هناك، أيضًا، عنكبوتٌ في الحمّام أحافظ معها على نوعٍ من الصحبة. دائمًا ما يذكّرني زيُّها القصير بعثّةٍ بعينها كنت قد

ساهمتُ في قتلها. العنكبوت نفسُها تنحدر من سلالةٍ غير محدّدة، باهتةٌ يأخذ بطنُها المنتفخ شكلَ بصلة. تنجح فوضى شبكتها ذاتِ ستِّ البوصات في أداء المنتظر منها، تنجح بطريقةٍ ما، تنجح بشكلٍ إعجازيّ، في إبقائها حيّةً وإبقائي على قيد الدهشة. الشبكة ذاتها في زاويةٍ وراء المرحاض، تُوصل بلاطَ الحائط بالأرضيّة، في مكانٍ، كنتُ سأظنّ حركةَ المرور فيه نادرة. بيْد أنّ تحت الشبكة ما يقارب ستّ عشرة جثّةً ملقى بها على الأرض.

يظهر على التقريب أنّها جثثُ قملات خشب، تلك الكائنات المدرّعة الضئيلة التي تعيشُ لترحلَ منبطحةً في المنازل، وتموتُ منقبضة. ثمّة أيضًا أبو مقصّ، جزءٌ جديدٌ منه بالأحرى، جلودُ عناكبَ قديمة، متغضّنة ومتلوّية، وجسدا عثّتين، فارغتين وضخمتين وبلا أجنحة، أجثو على ركبتيّ لأتفحّصهما.

يشعّ اليومَ أبو مقصّ ويلتمع بحزن، ماذا بقي منه: انعكافةٌ في ظاهر الصدر وانبعاجةُ بطن، وقرنا استشعار بهما عرفتُ اسمه. في الأسبوع القادم، لو كان للجثث الأخرى أن تُدلّل على شيء، فإنّه سينكمش ويصير رماديَّ اللون، طريحَ الأرض يعلوه

غبارٌ وخيوطٌ واهنةٌ من نسيج العنكبوت. قملات الخشب إلى جانبه مجوّفةٌ ومفرَغةُ اللون، هشّة، على بُعد نَفَسٍ من أن تنتهي إلى زَغَبٍ متقصّف. جلود العناكب مرميّة بجوارها، شفّافة وممزّقة، سيقانها تجفّ منعقدةً على بعضها. والعثّتان، العثّتان الفارغتان، تتمايلان قبالة بعضهما، منزوعتي الرأس، في خليط من قشورٍ مقوّسة مثل قشورِ طلاءِ أظافر، مثل ركامٍ من دعائمِ قببٍ كاتدرائيّة، مثلَ شيءٍ لا يشبه أيَّ شيءٍ تكونه العثّة، لذا وجب أن أتمهّل قليلًا قبل تسميتهما عثّتين، لولا أنّ لديّ خبرةً بفراشات العثّ في أصغر تجلّياتها.

* * *

قبل عامين، كنت أخيّم وحدي في جبال بلو ريدج Blue Ridge في فيرجينيا. هيّأتُ نفسي وعدّةً تلائم عزلةَ الأعالي، عزلةً لأقرأ، ضمن أشياء أخرى، *The Day on Fire*[2] لجيمس رامزي أولمن، روايةٌ عن رامبو جعلتني وأنا في السادسة عشرة أريد أن أكون كاتبة، كنتُ آمل أن تفعل الشيء ذاته مرّةً أخرى. ولذا كنتُ أقرأ، ضعتُ في القراءة، كلَّ يومٍ جالسةً تحت شجرة إلى جانب

(2) The Day on Fire - James Ramsey Ullman. Avon Books, 1958

خيمتي والعصافيرُ الهوازجُ تتمرجح على الأوراق المتمايلة فوق رأسي والديدانُ تخطّ طريقَها على الطين الممتزجِ بالغصينات العارية عند قدميّ؛ ولذا كنتُ أقرأ كلَّ ليلةٍ على ضوء الشموع، والبوماتُ مخطّطةُ الريش تصيح في الغابة والعثّات شاحبةُ اللون تتجمهر طائفةً حول رأسي في العراء حيث يخلق ضوءُ شمعتي طوقًا من النور.

استمرّت أسرابُ العثّات في الطيران صوبَ الشمعة. تهسهس ثم تنكص، تائهةً، على أعقابها في الظلال وسط قدور الطبخ. أو تُحرق أجنحتها وتهوي، والأجنحة المتوهّجة، كما لو أنّها منصهرةٌ، تلتصق بأوّل شيء تلامسه- قدرًا، غطاءً، ملعقةً- فلا تمنح للعثّات العالقة سوى مساحاتٍ ضئيلة، لا تُمكّنها من الإفلات. هذه أستطيع تخليصها بنقرةِ غصنٍ سريعة؛ في الصباح، أعثر على أغراض الطبخ مغطّاةً برقاقاتٍ من أجنحة العثّات، مثلّثات من الغبار اللامع تزخرف الألمونيوم. وأنا كنت أقرأ، وأغلي الماء، وأجدّد الشموع، وأعاود القراءة.

في إحدى الليالي طارت فراشةُ عثّ في الشمعة، عَلِقتْ باللهب، احترقتْ، ويبستْ مكانَها. لعلّي كنتُ أحدّق ساهمةً في

الشمعة، أو ربما، رفعتُ بصري عندما عبر ظلٌّ على صفحتي؛ على أيّة حال، لقد رأيتُ كلَّ شيء. أنثى ذهبيّة، عثّةٌ كبيرة طولُ جناحها بوصتان، رفرفتْ في النار، هوتْ ببطنها على الشمع الذائب، التصقتْ، تلظّتْ، اهترأتْ، وانشوتْ في ثانية. جناحاها الخافقان اشتعلا مثل منديلٍ ورقيّ، مُوسِّعَين مجالَ الضوء في البراح، وخالقَين من الظلامِ الأكمامَ الزرقاءَ المفاجئةَ لكنزتي، والأوراقَ الخضراءَ للبلاسم إلى جانبي، والجذعَ الأحمرَ الخشنَ لشجرةِ صنوبر. ثمّ على الفور تراجع الضياءُ من جديد وتلاشى جناحا العثّة في دخانٍ كريهٍ، رهيف. في الوقت ذاته انخدشتْ سيقانُها الستّ، انعوجت، اسودّت وانقطعت، مضمحلّةً إلى هباء. ورأسها اهتزّ في تشنّجات، محدثًا أصواتًا متداخلةً لها طشيش؛ زُبَانَيَاها تغضّنا واحترقا، وأجزاءُ فمها المترفّعةُ فرقعتْ مثل طلقٍ ناريّ. حينما انتهى كلُّ شيء، كان رأسُها، على حدّ تقديري، قد ذهب، سلك الطريقَ ذاتَه الذي تلاشى فيه جناحاها وسيقانُها. أكانتْ يافعةً أم هرِمة؟ هل تزاوجتْ وطرحتْ بيضَها، هل قضتْ ما عليها؟ كلُّ ما خلّفته وراءها كان القشرةَ الصدفيّةَ اللامعةَ لبطنِها وصدرِها- مهترئةً، تجويفًا ذهبيًّا شبهَ منهار متكوّمًا فوق بعضه في حوض الشمعة الدائريّ.

ثمّ ها جوهرُ العثّة، هذا الهيكلُ الرائع، قد بدأ يقوم بدور فتيل. ظلّت العثّة تحترق. علا الشمعُ جسدَها من بطنها المغمور إلى أعلى صدرها إلى الفجوة المثلّمة الحوافّ حيث يجدر برأسها أن يكون، واتّسع في اللهب، لهبٌ زعفرانيُّ الصفرةِ لفَّها متهافتةً كأنّما راهبٌ بوذيٌّ يحرق نفسَه قربانًا. صار لتلك الشمعة فتيلان، لهبان يتصاعدان بالارتفاع ذاته، جنبًا إلى جنب. رأس العثّة كان نارًا. ظلّت تحترق لساعتين، حتى نفختُها منطفئةً.

احترقتْ لساعتين دون تغيير، دون انثناءةٍ أو انحناءة- مشتعلةً من الداخل، مثل حريق بنايةٍ يومض عبر خيالات الحيطان، مثل جوفِ قدّيس، مثل عذراء متوهّجةِ الملامح في طريقها إلى الربّ، بينما كنتُ أقرأ على ضوئها، مستثارةً، حين بات رامبو في باريس يحرق رأسَه في ألف قصيدة، والليل يتجمّع رطبًا عند قدميّ.

وذلك سبب اعتقادي أنّ تلكم الرقاقات المفرغةَ على أرضيّة الحمام لا تعدو أن تكون بقايا عثّات. أحسبني أعرف العثّات، وأجزاءَ العثّات، والمزقَ المتكسّرةَ لعثّاتٍ فارغةٍ تمامًا، أعرفها في كلّ أحوالها.

كم منكم، سألتُ الطلبةَ في فصلي، من منكم على استعداد ليمنح حياته في سبيل أن يكون كاتبًا؟ كنت أرتجف من القهوة، أو السجائرِ، أو اقترابِ الوجوه من حولي. (هل هذا ما نعيش لأجله؟ فكّرتُ؛ هل هذا هو الجمال النهائيّ الوحيد: لونُ أيّة بشرة في أيّة عينٍ بشرية مبصرة، وتشعّ بالحياة؟) كلّ الأيدي ارتفعت استجابةً للسؤال. (أنت، يا نِك؟ هل ستفعل؟ مارغريت؟ راندي؟ لمَ أردتُّهم أن يعنوها؟) ثمّ حاولتُ أن أخبرهم أنّ الاختيار يجب أن يعني: أنّك لن تكون أيَّ شيءٍ آخر. يجب أن تمضي في حياتك حاملًا فأسًا... لم تكن لديهم أدنى فكرة عمّا كنت أقول. (لديّ يدان، أليس كذلك؟ وكلُّ هذه الطاقة، بقدر ما يسعني التذكّر. سأفعلها في المساءات، بعد التزلّج، أو في طريق البيت عائدةً من البنك، أو بعد أن يغطّ الأطفال في النوم...). ظنّوا أنني كنت أهذي من جديد. أجل لقد كنتُ أهذي.

لديّ ثلاث شمعات هنا على الطاولة أفصلها بعيدًا عن الزربيعات وأضيئها حين يأتي الزوار. عادةً ما تتفاداها سمول، رغم أنّها مرّةً اقتربت جدًّا فعلقتْ النارُ في ذيلها؛ أسرعتُ بإطفائها قبل أن تنتبه. ألسنة اللهب تحرّك الضوءَ على جلودنا، تسحب

الضوء إلى وجوه أصدقائي. وعندما يغادرون فإنني لا أطفئ الشمعات أبدًا، بعد أن أنام تلتهب وحدها وتحترق.

* * *

كاسكيد رينج Cascade Range، في هذا المدى الشاهق، تكاد تقع على ظهرها في الماء. ثمّة فقط مساحةٌ ضيّقة، خاطرٌ لاحقٌ بعرض ستين ميلًا من المزارع وسفوح التلال، بين الجبال الثلجيّة والبحر. تحيطها الجبال بعناية. باقي البلد- معظمُ الباقي من الكوكب، بشيءٍ من الواقعيّة، عدا جزءٍ صغير من الخطّ الساحلي لبريتيش كولومبيا وجزر ألاسكا، يُسمّى بيساطةٍ، ويُحَسُّ بعمقٍ، "شرقيَّ الجبال". لقد كنتُ هناك.

أتيت هنا لأدرسَ الأشياء الصلبة- صخرَ الجبلِ وملحَ البحر- ولأشحذَ روحي على حوافّها. «اهدني الطريق، يا ربّ»، دعاء كغيره من الأدعية، متلهّف، ولا أملك غير أن أنصح به. هذه الجبال- جبل بيكر Baker والأخوات الثلاث The Three Sisters وشوكسان Shuksan، سلسلة جبال الساحل الكنديّ والجبال الأولمبيّة على شبه الجزيرة- كلّها بالتأكيد شفا

العالم الذي نعرفه ونستوعبه. إنّها شاهقة الارتفاع. تحمل أجواءها وأجرامَها التي لا تخطر ببال عاليًا، تمسك بها جميعًا في السماء مجلوّةً للعين، تجعلها، أشبه بما قاله تشسترتون[3] عن أفخارستيا [مأدبة الرب]، تزداد غموضًا بقدر وضوحِها للعيان وغيابِ سرّها. إنّها الحدّ الغربيّ للحقيقة، إن لم تكن لما وراء الحقيقة بمراحل. لو أنّ اليونانيين أنعموا النظر إلى جبل بيكر طيلة اليوم، لتصدّع فنُّهم الصادق العظيم، ولذهبوا لصيد السمك، كما يفعل هؤلاء الناس. وكما سأفعل ربّما في يوم ما.

لكنّما الجبال، بصورةٍ لا تصدّق، شرقيّةٌ. عندما أتيت هنا أوّلَ مرّةٍ وَلّيتُ وجهةَ المشرق وتطلّعتُ إلى الجبال، أُقلّب الفكر، ذلك هو المدى الأقصى، أبعدُ نقطةٍ للنزوح غربًا، آخرُ حوافّ الزمان المثلّمة. ولأنّها، بصورةٍ لا تصدّق، شرقيّةٌ، فإنّني حتمًا في اللامكان. إلّا أنّ الشمس أشرقت على الأراضي المغطّاة بالثلج وأيقظتني من حيث أضطجع، فنهضت وألقيت بظلّي على مكانٍ ما، وقدّرتُ، ساعدنا يا رب، أنّ ثمّة ما هو أكثر. وهكذا،

(3) غيلبرت كيث تشسترتون (1874 - 1936) أديب وفيلسوف إنجليزي شهير. يعدّه كثيرون عرّاب الرواية البوليسية في القرن العشرين. عُرف بدفاعه عن العقيدة المسيحية وابتكر في قصصه شخصية القسّ-المحقّق "الأب براون".

جامعةً أطباقي وملاعقي، حوّلتُ وجهي والتفتُّ إلى الغرب، نافضةً عني كلَّ أمل في المعقول، لأجل ما هو أكثر.

وما الأكثرُ غير جُزُر: بحرٌ، وجزرٌ رائعةٌ لا تخطر ببال، وبحر، وسماواتٌ مئةٌ ينطوي بعضُها في بعض. ترخي أنفاسك. لا شيء يثبت؛ المشهد كلُّه يموج. لا أتخيّل سواحل فيرجينيا مختلفةً في أيّ شيء عن سواحل المحيط الهادئ. الوادي القريب، الواحة، الصحراء، ببساطة- كلها حزمةٌ من هوامشَ متهاوية مثل ورق لعبٍ يُخبَص بسرعة، مثل زورقٍ أو يومٍ مفلوتٍ لم يُمنحْ اسمًا، يعوم تائهًا في اليمّ. اليابسة شيءٌ مغمور والوقت شريط فيلم يلتفّ على بعضه بسرعة، بسرعةِ مئةِ سماءٍ زرقاءَ فارغةٍ ترجع القهقرى. تدارك أنفاسَك: إنّها الحافّة.

ها هنا الحافّة المثلّمة حيث تلتقي العناصر وتختلط العوالم، حيث الفناء والخلود يلطّخان بعضَهما بزبد البحر. والبحر المالح والجُزُر، في حالة تشكُّلٍ متتابع، مادّةً خامًا في إثر مادّةٍ خام، لا هي تنقطع، ولا الرياحُ تسكن ولا السماواتُ تتوقّف عن الانتشار في موجات. نسبةُ اليابسةِ الفعليّةُ مقابلَ الماء تضاهي الباقي من الكوكب: لم يعدْ لدينا من الوقت إلا أقلّ

ممّا نظنّ. الوقت هو الشحوب بين سطور الأبديّة، اللونُ الباهتُ ذاته في الجزر والبحر. ولم يعدْ لدينا من الوقت إلّا أقلَّ ممّا نظنّ وهذا الوقت عائمٌ، وممزَّع، ساطعٌ، وصاروخيٌّ، ومتوحّش.

الغرفة حيث أقيم خاليةٌ مثل جمجمة، وضعٌ مثاليّ للنوافذ. تعيش راهبةٌ في حرائق الروح، يعيش مفكّرٌ في الفتيل المشعّ للعقل، يعيش فنّانٌ مسحوقًا في حوض الماديّات. (أو أنّ راهبةً تعيش، كيّسةً صلبةَ العود، في العقل، وراهبةً تعيش، بتلك القوة التي للمتديّن، في منفى الماديّات؛ وأنّ مفكّرًا، من سيفكّر في شيء ما، يعيش في صدام الماديّات، ومفكّرًا في عالم الروح، حيث الأفكار الطريدة بيدها القياد؛ وأنّ فنّانًا يعيش في العقل، في مستودع الأشكال ذاك، وفنّانًا يعيش، طبعًا، في الروح. وهكذا.) لكنّ هذه الغرفةَ جمجمةٌ، برجُ نارٍ، خشبيّةٌ، وفارغة. هي في ذاتها لا شيء، إنّما المنظرُ، كما يقولون، بديع.

وإذ أعيش في غرفةٍ واحدة، بحائطٍ واحدٍ طويلٍ من الزجاج، فإنّني أنا نفسي، بكلّ ما أقوم به، مجرّد ستارةٍ خلفيّة لما يحدث في المشهد الطبيعيّ، لكلِّ طقوسِه، ألوانِه، وأضوائه. من

مغسلة المطبخ، ومن سريري، ومن الطاولة، الأريكة، الموقد، المنضدة، أرى اليابسة والماء، الجزر، والسماء.

اليابسة معقّدة وتتبدّل: تغادرها العين. كنيسة أبرشانيّة بيضاء وسط أشجار تنّوبٍ دوغلاس؛ مرعى أخضر بين حقلين أسمرين ضاربين للصفرة؛ غُنيمات منحنيات تحت أشجار الألدر، وإلى جوارها حظيرةٌ تجري فيها دجاجاتٌ بنيّاتُ اللون. لكنّما كلّ شيءٍ في المشهد الطبيعيّ يشير إلى البحر.

تَدرُّجُ اليابسةِ اللونيُّ يَهدي النظرَ إلى تلّةٍ قاصية، تلّةٍ كمزرعةٍ كبيرةٍ يتقافز النور فيها طيلةَ اليوم على مروجٍ صفراءَ من ملايين السيقان والأوراق؛ وأسفلَ التلة من أطرافها تنسدل غابةٌ من أشجار التنّوب، منحدَرٌ تتهادى فوقه العين إلى غايةِ ما هنالك، قطعةِ الأرضِ الفضيّةِ المعتمةِ التي تُمسك بالخليج. من هذه الزاوية تَرى الخليج ينشقّ هلالًا؛ تحلّق عينُك على الشاطئ الأسود حتى تبلغ الغايةَ، أو تنزلق على التنّوب الأخضر إلى الغايةِ، والغايةُ سهمٌ يشير مرّةً بعد مرّةٍ إلى البحر، بشاطئه المغطّى بجذوع الأشجار المتناثرة، بوحدانيّته الرماديّة، وبزبَده الأبيضِ المنحني راسمًا حدَّه، إلى البحرِ: إلى الصوتِ المصفّى، إلى

ازرقاق الماءِ عن بعدٍ على شفا العالم، وعلى الماءِ تستوي الجزر الزرقاءُ البعيدة، وفوقها تضيء الغيومُ الخفيفة.

* * *

لن يمكنَك تصوّرُ المنظر، أَيمكنك؟ ولا حتّى أنا. أوه، المنضدة صفراء، طاولة الصنوبر مستديرة، السراخس تتنفّس، المرآة باردة، ولم يحدث أن عناني الأمرُ قطّ. قرأتُ. في العصور الوسطى، قرأتُ، أنّ «الفكرة التي تَصوّرها المرءُ عن شيءٍ ما دائمًا ما كانت أكثرَ حقيقيّةً في نظره ممّا قد يكونه الشيءُ نفسُه في الواقع». بالطبع. أنا الآن في عصوري الوسطى؛ العالم عند قدميّ. العالم عبر النافذة، مخطوطةٌ مشعّة تتخاطف أوراقَها الريح، ورقةً ورقة، زخرفاتُها الملوّنة وكلماتها المترنّحة تجذبني إليها، زخرفةً زخرفة، كلمةً كلمة، وأنا دائخةٌ في الأيّام وتائهة.

هناك، باختصار، بلدةٌ واحدة، غرفةٌ واحدة، نافذةٌ ضخمةٌ واحدة، قطّةٌ واحدة، عنكبوتٌ واحدة، وشخصٌ واحد: لكنني فارغةٌ من الداخل. وحتى الآن، هناك الكثير من الآلهة، لكلّ

صباحٍ إله، والكثير من الأشياء التي سنقدّمها قربانًا لأجل عمل الآلهة- رئاتٌ وقلوب، عضلاتٌ، أعصابٌ، وعظام- ثم هناك أرض الأشياء الكثيرة التي لم يطأها بشر حيث تقيم، وحيث أسعى جاهدةً ليصلَها دعائي، فازعةً إليها لأجل عملٍ هو من شأني.

* * *

لا شيء سيحدث في هذا الكتاب. ليس سوى بعض العنف هنا وهناك في اللغة، في الزاوية حيث الأبديّة تُثبّت الوقتَ بدبّوس.

* * *

قرأتُ. إنّ الأرمينيّين، قرأت، يرشّون بالملح صغارَهم حديثي الولادة. راجعتُ في مصدرٍ آخر: اليهود أيضًا فعلوا الشيء نفسه زمنَ الأنبياء. غسلوا طفلًا بالماء، مَلّحوه، ولفّوه في قطعة قماش. عندما وعد الربّ هارون واللاويّين بكل القرابين التي رفعها له بنو إسرائيل، باكورة الثمار وأوّل نتاج الماشية، «أحسن الزيت، وأطيب النبيذ»، سمّى عهدَه هذا، «ميثاق ملحٍ

أبديّ». ومن طقوس التعميد في الكنيسة الرومانيّة أن يضع القسّ ملحًا في فم الوليد.

أضع أنا ملحًا على بيض فطوري. أشعر طيلة اليوم أنّي أُخلَق من جديد. أستطيع أن أرى الغبارَ المبثوثَ على الجلد فوق ظاهر يدي، قطعَ الصلصال بالغةَ الصغرِ شبهَ المنحرفة، رطبةً ومنفوخةً فيها الحياة. ثمّة خرافٌ خُلقت في المرعى أسفلَ مني، خرافٌ تبرح هنا تحديدًا، ظلفًا بظلفٍ لامسةً فقط ظلالَها الزرقاءَ على العشب. نوارسُ خُلقتْ لتملأ وجه الهواء بالبثور، تشقّ ندوبًا كبيرةً منحنيةً في الهواء الساكن: أقول مرحى لفطوري، مصابةً بالذهول.

* * *

لم أزل أرسم خريطةً مفتاحيّةً للجزر التي أراها من نافذتي. كان كلّ شخصٍ يعطيني قائمةً مختلفةً لأسمائها، حتى أتى في يومٍ ما بحّارٌ وسمّى لي كلَّ واحدةٍ منها بتلك السلطة التي جعلتني أصدّقه. وعليه رسمتُ بقلم الرصاص مخطّطًا للأفق على ورقة، وميّزتُ المعالمَ بأسمائها: جزيرة سكيبجاك

Skipjack، سوسيا Sucia، ساتورنا Saturna، سالت سبرينغ Salt Spring، بير Bare...

اليوم، 18 نوفمبر ولا أثرَ للريح، كُشف اليومَ قناعٌ من الهواء لم أكن أعرف بوجوده. أرى جزيرةً جديدة، تجعيدةً جديدة، تعمّقًا في الحيرة، خلف الشفافيّة الزرقاء قال البحّار تقع جزيرة سالت سبرينغ. أمّا هذه فلا أملك طريقة لمعرفة اسمها. أُحضر الخريطة إلى الطاولة وأرسم خطًّا جديدًا. لِنُسمِّ تلك: شمال الجزيرة المجهول؛ منحوتة-الماء؛ تغضّن-السماء؛ حديثُ الولادة ومرشوشٌ بالملح؛ في انتظارِ بحّار.

* * *

يروي هنري ميلر بأنّ كنوت هامسون قال ذات مرة، ردًّا على استبانة، أنّه إنّما كان يكتب ليقتلَ الوقت. هذا مضحكٌ من عدّة نواحٍ. من عدّة نواحٍ أقتل نفسي بالضحك، ناظرةً إلى الجزر. القطّةُ الصفراءُ، مفزوعةً، تحملق وراء كتفها، لقد جلبتْ معها إلى الغرفة عصفورَ نمْنمة (صعوًا) صغيرًا. فجأةً تقع عيني على العصفور الذي قتلَته، جناحاه الميّتان يلفتان

الانتباه باعوجاجهما على قطعة السجاد المستديرة. لقد حان الوقت. اغربا عن وجهي أنتِ وعصفورك. أنا مشغولة بالضحك، كي أقتل الوقت. أهشّ القطّة من الباب، أحمل العصفور في كفي وأرمي به من الرواق، ليسقط على شَعْر العشب ونبات البرْدي الميّتِ بردًا، حيث قد تجده القطّة لو وجدَته، أو الغربانُ، أو الخنافسُ، أو المطر.

عندما أرفع بصري بَعْدُ عن كوب القهوة، أنتبه إلى صخبٍ في الرواق. لقد جرّت القطّة هناك إلهًا، مسفوعَ البشرة. إنّه حيّ. أجري خارجًا. إنّه سليمٌ بالنظر إلى جناحيه، رجلٌ صغير جدًّا، وكامل الخلقة. إنّه أشقر، رقيق الجلد في فم القطّة، ويرفس بقدميه. شعره يشتعل وتنبعث منه رائحةٌ كريهة، أطراف جناحيه مسودّة ومحروقة. وبهفّتين ناعمتين من منخر القطّة النمريّ، يرتجف جسده، عاريًا. بإحدى يديه المتناهيتين في الصغر يدفع عنه جاهدًا أنفَها. يحرّك فخذيه؛ يضرب وجهها ويصفع الهواءَ بجناحيه المتصاعد منهما الدخان. لا أطيق التنفس. أجري نحو القطّة لأخيفها، فتُسقطه، حادجةً إيّاي بنظرةٍ شرّيرة، وتفرّ من الرواق.

يستلقي الإله كاملًا ويلهث. إنّه في طول وجهي أو أقصر. سريعًا أطفئ النار مخنوقةَ الدخان في شعره الأصفر بسبّابةٍ وإبهام. إذ أفعل هذا أمسّ دون قصدٍ رأسَه، مَسًّا رقيقًا، رأسٌ بحجم حبّة بندق، كما يقال، دافئ ونابضٌ بالحياة.

يدير عينيه الشاحبتين ناحيتي: جناحاه يستمدّان من الشمس قوّةً، ويرتفعان.

* * *

لاحقًا، أتمشّى في آخر أضواء اليوم. يعتلي الإلهُ حافيَ القدمين كتفي، أو يمتطيه، أو يمعط شعري أو يتمرجح في لفّاته.

إنّه يصفّر في أذني، ينفخ لحنًا عظيما في أذني، حكايةً أسطوريّةً عن نوفمبر. ينفث إعصارًا حارًّا في أذني، في شعري، أغنيةً ساهيةً تجعل الأشياءَ واقعًا، تُخرج الجزر من البحر، تُبدِع فراشةَ عثٍّ محكمةَ الخلق من إبط صخرة، وتنادي على البطّات السابحات في السماء أن يهبطن فقد دخل الشتاء.

أرى ذلك! أراه كلَّه! جزيرتان، اثنتا عشرة جزيرة، عوالم، يجمع العناصر، يأمر تضاريس الزمن الزرقاء، فتصطفّ على مسافةٍ قريبة، مصمتةً وخرساء.

أحسبني أرى طريقًا؛ أحسبني على ذلك الطريق، أمشي. أحسبني أمشي على طريق مجلّلٍ بالسواد يصعد تلّةً. التلّة تخلق نفسها، مقترحٌ جبّار. تخلق نفسها، تتضخّم واضحةً بأرضٍ صلبة ونباتٍ يتموّج، بمنازلَ وماشيةٍ تهيم، تنبسط حيثما تذهب عيناي، كما لو أنّ نظرتي فرشاةٌ تُلوّن عالمًا. لا أستطيع الفرار من الوهم. الفكرة الزاهية تصرّ على البقاء، هذا العالم، حلمٌ ينحشر في أذني وينتشر في جسمي حبالًا من الدم الساخن.

لو أرمي بصري وراءَ التلّة كي أرى الحقيقة- نجوم، أكانت نجومًا؟ شيء بجناحين، أو عُروتين؟- عوضًا عن ذلك أستطرد في الوهم؛ أقسو في أرضٍ محايدة. أخيط من الستارة الشفّافة جبالًا خياليّة مشرقة، غيومًا مثقلةً تمرح تمامًا فوق ظلالها على المياه الخضراء، وسماءً صافيةً عصيّةً على النفاذ. يكتمل الحلم، كأنّما ريحٌ تُكمِل سفرَها الواسعَ

فوق خليج. بسرعةٍ ألتفت إلى الطرف الخافت من الحلم بحثًا عن لمحةٍ من ذلك ال... العميقِ العتيق، وبالسرعة ذاتها ينسدّ الممرُّ الأزرق، تنخلع الألوان عن كلّ شيء وتنطوي. ليس ثمّة منفذ. السماء مكعومٌ فمُها بالأشجار. أحسبني على طريق، أمشي، أُحيّي الغصينات الشائكة، الورودَ البريّة، التفاحَ، والزعرور. أحسبني على طريق أمشي، مألوفةً للجيران، معروفةً للماشية فلا نلقي لبعضنا بالًا، أتنسّم هواء البحر، وحدي. أعرف، سلفًا، أسَماءَ الأشياء. أستطيع أن أركلَ حصاةً.

* * *

الوقتُ كافٍ، أكثرُ من كافٍ، وموادّ الخلق ممنوحةٌ ووفيرة. إله اليوم طفل. وليدٌ جديد ويملأ البيت، هنا بصورةٍ لافتة وعلى حقيقته. إنّه يوم. ينمو في كوب ريح، مكتنَفًا بالريح ويشقّ طريقَه ضدَّها. يكشف عن نفسه، كلّ طرفٍ على حِدَة. قليلًا قليلا، القدم أوّلًا: كلمة، رفيقُ قهوة، تغيّرُ اتجاه الريح، تعارضُ أفكارٍ أو توافقُها. اليوم، 18 نوفمبر ولا أثرَ للريح، الرؤية واضحة. تيري وين- من يمتهن صيد السمك،

ويأخذ عندي مقرّرًا في الشعر- يمكنه أن يرى جبل رينير Rainier. يسحب عدّة الصيد وشبكتَه من على الحيد البحري في الخليج. ونتجاذب أطراف الحديث على ظهر المركب بينما يسوّي بالمطرقة العُقَدَ المنكمشة في شبكته. العشاء في مورز. في السرير أنادي قطّتي الحزينةَ إليّ، وأقرأ.

إله اليوم واسعٌ ومبلّلٌ بالكامل. ينشر ذراعيه حاملًا مروجًا مخضلّة، يمدّ أصابعَه، ملامسًا بأنامله الساحل. إنّه الجلد الحيّ للزمان؛ يتبرعم من يوم وينمو مثل أيّة شجرة. تطول ساقاه عبر السماوات، تتحرّكان هائلتين، وتومضان ملتفّتين حول الأرض نحوَ الليل.

هذا هو العالم الواحد، مستغنيًا بذاته ومبتهجًا. يفور في أعالي الأشجار، والأشجارُ ترفع تيّارات الملح إلى أوراقها. هذا هو الهواءُ الواحد، مجرَّحًا بالطيور السواديّة؛ الوقت وحيد ويدخل العقل ويخرج منه. إله اليوم ولد، وثنيٌّ وسرخسيُّ القدمين. قوّته في الحماس، وبراءته في الغموض. يقبس من كل ما هو مقدّس. عاليَ الحسّ كموسيقا، تملأ الأرض والسماء، يشرق يومُه في البيت زاهيًا بالأحاسيس المئة. يشرق، جديدًا ومحيطًا

بكلّ شيء؛ إنّه كلُّ ما هنالك، بتمامه هنا ومفرَغًا- مندفقًا وسيّالًا، مبذورًا، خفيًّا، ومحلّقًا.

اليوم الثاني:

نابُ الإله

في هذا العالم تسقط طائرة.

الأرض لطخةٌ معدنيّةٌ في جسد الأشجار. عَلِقتْ الطائرةُ بجناحها على شجرة، خفقتْ خفقةً متهالكة، وجاهدت في السقوط.

سمعتُها تهوي، رَنَت القطّةُ ببصرها. ليس ثمّة سببٌ: محرّك الطائرة خمد ببساطة بعد الإقلاع، وعجزتْ الطائرةُ الخفيفةُ

عن التحليق فوق أشجار التنّوب. سقطت بسهولة؛ عَلِق جناحٌ بأعلى شجرة؛ تهافت المعدن في الهواء وتناثر حطامه في الأحراش الرفيعة حيث ترعى الماشية؛ انفجر الوقود؛ واحترق وجه جولي نوريتش[4] ذاتِ سبعِ السنوات.

جولي الصغيرة صامتةٌ الآن في إحدى غرف مستشفى القدّيس جو، تسري الأدوية في الملاءات. جولي الصغيرة بعينيها المدوّرتين العاريتين، ذاهلة. أيمكنك أن تصرخي دون شفاه؟ نعم. أَوَيصرخ الأطفالُ في ألمٍ مقيم؟

إنه 19 نوفمبر ولا أثر للريح، ولا أمل في السماء، ولا أمنية تتعلّق بالسماء، منذ بات أكثرُ الناس خسّةً أرحمَ من آلهة الصيد والإرهاب.

* * *

(4) اختارت المؤلفة هذا الاسم الرمزي لشخص الفتاة المصابة في حريق الطائرة إشارةً إلى الناسكة المسيحية جوليان نوريتش (1342 - 1416) مؤلفة واحد من أبرز نصوص التصوف المسيحي في القرون الوسطى: Revelations of Divine Love. أوّل كتاب لامرأة في تراث اللغة الإنجليزية المحفوظ.

مدرج الطائرة، أشبه بلوح غسيل مموّجٍ ومستوٍ بوضوح على رأس تلّة منخفضة، يبعد عن بيتي بضعة حقول ممتدّةٍ- أعلى الطريق مرورًا بالأحراش، أو عبر مرعى الأغنام مرورًا بالأحراش. مدرّب طيران مرّةً أخبرني أنّه حين يغترّ تلاميذُه، حين يخيّل إليهم أنّهم قد عرفوا تمامًا كيف يقودون طائرة، يأتي بهم هنا ويجعلهم يهبطون على هذا المدرج. عليك أن تُقلع طائرًا فوق الأسلاك وتحتها، وعلى طول المدرج ثم تحلّق عاليًا لحظةً تواجه الأشجار، أو بالعكس، تعود هابطًا بنفس الطريقة، اعتمادًا على حركة الرياح. لكن ذلك لا يعني أنّ المدرج خَطِر. ما حدث أنّ المحرّكَ خذل جِسي. إدارة الطيران الفِدراليّة ستستخلص الحطامَ، قطعةً قطعةً، من جذع الشجرة، وستحاول معرفة السبب وراء فشل المحرّك. في غضون ذلك، كان صوتُ صفّارات الطوارئ قد علا، جاعلًا كلَّ من لم يشهد سقوط الطائرة يتوقّف لحظة- باتي المنشغلةُ بنسيجها، جوناثن مقطّعًا تفّاحاتِه، جان غاسلةً وجهَ طفلها- يتوقّف، بأسف ورعب، متسائلًا مَن بيننا أصيب، وأيّةُ حادثةٍ سيّئةٍ وقعتْ يا ترى، ولماذا. فِرقة المتطوّعين اجتمعت؛ سيّارات المطافئ هرعت للنجدة- مستنفرةً أغنامَ شولر- ونقلت معها جولي المحترقة وأباها جِسي إلى قسم الطوارئ في البلدة، تاركةً

بقيّتَنا ليحكيَ ما شهد، ليكافحَ أدخنةَ الحشائش المحترقةَ في المدرج، ليصلّي، أو ليتخبّط بين النوافذ، مستشيطًا.

إذن فقد أحرقتْ النارُ وجهَها وعنقَها، جولي نوريتش. ذات الأسنان القصيرة المصفوفةِ صفًّا، الابنة البكر لجِسي وآن، حمراء الركبتين، خضراء الجوربين، وتحمل معها قططًا.

* * *

رأيتُها مرّةً فقط. كان ذلك قبل أسبوعين، تحت شجرة زعرور إنجليزية، في المزرعة.

هناك عدّة مزارع في هذه الناحية من الأحراش، إنّما وحدَها نعني حين نقول "المزرعة"- أرض كوركوران القديمة، حيث يعتني غاس بالكلأ ويريّ العجول: المزرعة، حيث أسوارُ حظائر الدجاج المهجورةِ وأخشابُها تُبحر في الأرجاء مثل مراكبَ طويلة، مثل قوارِبِ حربٍ عائمة؛ حيث درب السيّارة الطينيُّ مضفورٌ في المماشي المعشوشبة بأزهار آذريون البرتقاليّة، بالحبال، بالمعدّات، وبالحشائش؛ المزرعةُ حيث العجول الماكرة تتعرّف

إلى الشبوك، وتندفع مسعورةً في الحديقة، ثمّ تنزرع فجأةً بيضاءَ وسوداءَ، إلى مستوى أعناقها في البازلّاء الخضراء.

بين بيت المزرعة الرماديّ والحظيرةِ فناءٌ مديدٌ من العشب الأخضر، مناسبٌ لكلّ المشاريع. ذاك اليوم، كان ستة عشر واحدًا منّا يصنعون نبيذ التفاح. الجوّ باردٌ. أكوامٌ من التفاح في كلّ مكان. كنّا قد ملأنا شاحناتِنا في الصباح، متسلّقين الأشجار، نُهزهز فروعَها، ساحبين أخياشًا مثقلةً بالتفاح، وناقلين كراتينَه وجرادلَه وصناديقَه، نُحمّلها كلَّها إلى المزرعة. جِسي وآن، كلاهما في بحر الثلاثين، مع جولي والطفل الصغير، نسيتُ اسمَه، نزلوا من الجبال ذلك الصباح بحمولة شاحنةٍ من التفاح، منطلقين، كي يشاركونا صناعة النبيذ، كي يملأوا جرارَهم، ويعودوا أدراجَهم. لم ألتقِ بهم من قبل. شربنا جميعًا قهوةَ الصباح في رواق بيت المزرعة بُغيةَ بعض الدفء؛ وضعنا الخراطيم في بواطي الخمر ملءَ الساحة. كنّا نلقي التفاح في آلة تقطيع ثم نعصر أرواح التفاحات عبر أغطيةِ الوسائد، ملطّخين أكفَّنا ومعرِّضين أصابعَنا للصقيع، وساكبين العصير في سبعين باطيةً (كل واحدة بسعة جالون). وخلال هذا اليوم الطويل كلِّه، كانت جولي نوريتش تلاحق قطّتي، سمول، في فناء

المزرعة وتلاعبها، وتلوّح بها، قرب السقيفة تحت شجرة الزعرور.

كانت طفلةً نحيلة، بذقنٍ مدبّب، صفراء الناصيةِ والضفيرتين. تحدّق بعينين نصفِ مغمضتين، وعندما تمنحها نظرَك فإنّها أحيانًا تبدأ في الضحك، كأنّك فاجأتها لتستعرض قوّةً لم تكن مستعدّةً لإظهارها. ظللتُ أنظر إليها، متسائلةً إنْ كانت بردانةً بسترتها مفكوكةَ الأزرار، وركبتيها الناتئتين مكشوفتين.

قد تُهَمْهِم بصوتٍ خفيض وَصَلاتٍ تمتدّ لنصف ساعة. وفي الفواصل، لما يقارب خمس دقائق، كانت تحاول، بهدوء شديد، أن تتعلّم كيف تصفِّر. أظنّ. أو أنّها كانت تُمرّن وجهها على التركيز. لكنّها على الأرجح كانت تتعلّم التصفير، لأنّها تتعمّد أحيانًا أن تُفلِت من كُوّة شفتيها نوتة عالية حين تحاول تقليد صوت الصفير، كما لو أنّ ذلك سيضلّل أيّ أحد. وطيلةَ اليوم كانت تُلبّس القطّةَ الصفراء وتجرّدها، حاشرةً إيّاها في رداءٍ أسود، رداءٍ أسودَ طويلٍ كأنّه رداء راهبة.

كنتُ مندهشةً من ذلك الرداء. لعلّه كان من ملابس العرائس وقد جلبته معها في الشاحنة؛ لم أرَ مثله من قبلُ ولا بعد. ياقة

بيضاء تزيّن فتحة العنق وتنسدل على أعلاه مثل صدريّة. له كمّان واسعان كجناحين أسودين. تغترف جولي القطّة وتحشرها في القُماشة. عرفتُ كيف شعرت، كانت مستثارةً، وهي تكسر خاطر القطة بلوي ذراعِها النحيلةِ المكسوّةِ بالفرو كما يلوي امرؤٌ إصبعَه. عرفتُ المشاعر العديدة التي مرّت بها وهي تحشر هاتين الذراعين عبر الأكمام. سمول قطّةٌ ضئيلة: تحسّ كأنّ أطرافَها عظامُ طائرٍ منظومةٌ في جورب. حين فرغت جولي من إقحامها في ذلك الرداء بألفةٍ تثير الفضول، كانت تُهدهدها وتُهزهزها كما تفعل بدمية. لم تزد القطّة على أن رمشت بعينيها، نائمةً على ظهرها.

مرّةً صفّرَتْ لها، أو حاولتْ بالأحرى أن تنفخ هواءً في وجهها؛ فانسلّت القطّة هاربةً من بين يديها. قفزت عبر مدخل السيارة، خفيفةً بأكمامها؛ تجرّ رداءها الأسود هنا وهناك، تُميله بذيلها الأصفر، وتثير الغبار. كنت أعصر طرفَ غطاءِ وسادة مليء بمزيج التفاح وأطالع خلفي. رأيت القطة تجتاز مدخل السيارة، وتختفي، خانعةً، في مخزن الأصائص؛ رأيت جولي تسرع في إثرها بلا تردد، تقبض عليها، تصفعها، وتجرّها إلى الشجرة، ممسكةً بها في لمحة سريعة من كلتا يديها ببراثنهما،

حيث تدلّى جسمها معلّقًا باستقامة من قائمتيها الأماميتين.

رأتني أشاهدها وتبادلنا نظرةً، نظرةً واعيةً جدًّا، واعيةً بالنفس- لأنّ شَبَهًا ما يربطنا وكلانا أدرك ذلك؛ لأنّها ما زالت صغيرة وأنا كبرت؛ لأنّني عَلِقتُ راكعةً قُبالةَ دلو النبيذ، أنظر إليها خِلسةً من فوق كتفي؛ لأنّها كانت تحمل القطّة بشكل غريب، ممّا اضطرّها أن تمشي مباعدةً ما بين ساقيها الطويلتين؛ لأنّها كانت قطّتي، وقد ألبستَها، وبدتْ مثل راهبة؛ لأنّها عرفت أنّني كنتُ أشاهدها، ويالَلولعِ، طوالَ الوقت. ثمّ بتنا نضحك.

بدونا متشابهتين بعضَ الشيء. وجهها الآن مشوّه، وأنا لا أتذكّر وجهي. إنّها أفضلُ النّكات على الإطلاق، أنّنا هنا، وحمقى- أنّنا مبذورون في الزمن مثل حبوب قمح كثيرةٍ جدًّا، أنّنا أرواحٌ مرشوشةٌ جُزافًا كالملح في الزمن وذائبةٌ هنا، مبثوثةً في المادّة، ومتّصلةً عبر الخلايا إلى أسفل أقدامنا، وتلك الأقدام مُرَجَّحٌ أن تصرعنا فوق جذر شجرة أو تسحقنا على حجر. النكتة في هذا أنّنا ننسى. أعطِ العقل ثانيتين لوحدِه، وسيظنّ أنّه فيثاغورس. نَصْحو مئة مرّةٍ في اليوم ونضحك.

نكتة العالم في أنّه أشبه بمِدَمَّةٍ منه بقشرة موز، المِدَمَّة القديمة في العشب، تلك التي تخطو عليها بقدمك، فيتلقّاها جبينُك. تأتيك كلُّها. في لمحة. لا بدّ أن تُعجَبَ بالنكتة لأجل تناسقها، إذ ينجلي المشهد كلُّه من زاوية نظر صحيحة واحدة، الزاوية الصحيحة ذاتها التي تُنْجِز كلَّ فلسفة. خطوةٌ واحدة على المِدَمَّة، وإنّه العقل تحت المادّة تارةً أخرى. تصحو وجزءٌ من شجرة في جمجمتك. تصحو وفاكهةٌ في يدك. تصحو صافي الذهن وترى نفسك، فتخجل من نفسك. ترى وجهك وإذا به وجهُ طفلةٍ عمرها سبع سنوات ولا تدري لماذا، أو أين كنت منذ أمد بعيد. نحن منشورون في الزمن مثل عشب كثير، علفٌ حلوٌ لإلهٍ نَهِم. تصحو وتسقط طائرةٌ من السماء.

* * *

ذلك اليومُ كان إلهًا، أيضًا، يومَ صنعنا نبيذًا ولعبت جولي تحت شجرة الزعرور. لعلّه كان إلهًا في فورة نشاطه، فلّاحًا. كان منتشرًا تحت الحدائق، نائمًا في الزمان، شيخًا بريئًا يحكّ رأسَه، مفكّرًا في تشذيب البستان، ومغرَمًا بالعائلات.

لا حول له ولا قوّة؟ هل في وسع الآلهة الأخرى أن تحمل الدهر، وأبناؤه مقلوبون مثل دمية في أذرعها المتخبِّطة؟ كما لو كنّا نحن الناسَ من يجرِّبَ فكرة العائلة ولعبةَ المنزل- إذ نكون جادّين وحقًّا نحبُّ- وليست الآلهة؟ لا، إلهُ ذلك اليومِ لا حولَ له. لا آلهةَ تملك القوّة لتحمينا. ليس سوى الأيّام. الإله العظيم الأوحد أسلمنا إلى الأيّام، إلى اضطراب الزمان بالأحداث، أسلمنا إلى آلهة الأيّام، كلٌّ بضخامته وحمقه متوحّشٌ ومسعور.

جِسي، أبوها، كان قد أبعدها عن الطائرة هذا الصباح ممسكًا بها وساحبًا إيّاها لحظةَ اندلع الوقود. كتلةٌ كبيرةٌ من الدخان المشتعل انقذفت في وجهها، أو شيءٌ محترقٌ من أجزاء الطائرة أو من شجرة التنّوب. لا أحد سواها احترق أو تأذّى بأيّة صورة.

* * *

وها هي الحال التي صرنا إليها. رماد، رماد، يغمر المكان. كيف وسعني النسيان؟ ألم أرَ السماوات أمسِ مطموسةً تنغلق

أبوابُها، إذ أمشي على الطريق؟ ألم أسقطْ من عتمة النجوم إلى هذه الأيام المنتنةِ مشبوبةِ الحواسّ؟ وَهْمٌ حجارةُ رحى الزمان المخدّدةُ العظيمة، لأنّ الخير وحده حقيقيّ؛ وهمٌ حجارةُ رحى المكان المخدّدةُ العظيمة، لأنّ الإله روح والعوالم أحلامُه الأكثرُ رهافةً: لكنّ الأوهامَ كاملةٌ تقريبًا، كاملةٌ حسب ما يظهر وستبقى كذلك لأجيالٍ تترى، والألم أيضًا، وبلا ريب، حقيقيّ. الألم في دوران الرحى الطاحنِ حقيقيّ، لأنّ حبّنا لبعضنا البعض- للعالم وكلِّ مخلوقات المدى- حقيقيّ، واسعٌ، بقدر ما يكونه الحبّ، بأبعد ممّا تتمخّض عنه الحجارة في انحناءتها المجهدة لتبلغ عالم الروح، روحِها عاريةً. وسيكون بالإمكان القبضُ عليك متشبّثًا بطرف حُبّ، عندما تموت أمُّك، وينهار أبوك؛ عندما تضيع بلاد، أو يضيع عصرٌ، وصديقك مندثر، غابر، وجثّة أخيك منخورة، وباردة، وصغيرك ميّت، وأنت تحتضر: تمدّ خيطَ الحُبِّ الطويلَ وحيدًا، معرًّى كسلكٍ مكهرب يمنح شرارته لغيمة، كسلكٍ مكهرب متروكٍ في الفضاء لأبد الشوق والأسى.

أجلس عند النافذة. هذا ما ستصير إليه حمقاءُ مثلي، أن يعصفَ هذا الجلوسُ الدائم عند النوافذ بالورق المتهافت

ثمّ بي في الطريق. هل سأشيخ يومًا؟ ها هي سمول العجوز قادمة، بفمها العصفوريّ، تريد حِضْني. لقد خلصتُ منها. هل لديكِ أدنى فكرةٍ كم أنا شابّة؟ أين رداؤكِ، يا قطتي؟ أظنّ أنّي سأُعمِّر أطولَ من هذه القطة البئيسة؟ سأقتني غيرها. وأترك لها ملاعقي الفضية، كالعجائز اللاتي يُحكَى عنهنّ. أُفضِّل الكلاب أكثر.

قرأتُ. إنّ الملائكةَ، قرأتُ، تنتمي إلى تسع مراتبَ مختلفة. السارافيم أعلاها مرتبةً، إنّها متوهّجةٌ بحبّ الربّ، وتقف على مسافةٍ أقربَ إليه من البقيّة. السارافيم تحبّ الربّ؛ الكاروبيم، مجموعةٌ ملائكيّة تملك معرفةً أكملَ بالربّ، تأتي تاليًا. فالحبّ إذن أعلى شأوًا من المعرفة؛ كيف لي أن أنسى؟ السارافيم مخلوقةٌ من تيّارِ نارٍ وهّاج ينبع من تحت العرش. إنّها، بحسب القدّيس ديونيسيوس الأريوباغي، «أجنحةٌ كلُّها»، لكلّ ملاك، كما أشار النبيّ إشعياء، ستة أجنحة، يطوي كلّ ملاكٍ جناحين منها على عينيه. وتمضي في ذهابٍ سرمديٍّ إلى الربّ، تُسبِّح أبدًا بحمده، مبتهلةً قدّوس قدّوس قدّوس... لكنّها، وفق بعض روايات التلمود، متى ما ترنّمت بالكلمة الأولى قدّوس أشعلتها سَوْرةُ الحبّ تارَةً أخرى وحوّلتها إلى ألسنة

لهب، وهكذا دواليك إلى أبد الآبدين، يُنشئها الحبّ ويُشعلها. «متخلّيةً عن كلّ شيء»، يخبر ديونيسيوس مريدَه. «فالربُّ يمقت الأفكار».

يمقت الربُّ كلَّ شيءٍ، على ما يبدو. لو تخلّى عنّا، قطع الخليقةَ من أُسِّها عن أيّ جذورٍ تربطها بالحقّ؛ لو في المقابل تخلّينا نحن عن كلّ شيء- كلّ هذي الأوهام المتعلقة بالزمان والمكان والحياة والأحياء- من أجل أن نُخلِص الحبَّ للحقّ: إذن أين نكون؟ الفكرة نفسها مستحيلة، لأنه ليس في إمكان الذات أن تكون على علاقة مضمونة بالموضوع، ولا في إمكان أيِّ موضوعٍ أن يكون على علاقة مضمونةٍ بالربّ. المعرفة مستحيلة. نحن تمامًا في اللامكان، نغوص على كتلة جليديّةٍ متخيّلةٍ بالكامل، على غير هدى في بحارٍ هي نفسُها متخيّلةٌ بالكامل. ثم نمدّ خيطَ حُبٍّ طويل نحو ربٍّ أقلَّ استحقاقا للحبّ من مسطول، يعاملنا بأقلَّ ممّا نعامل به زَريعاتنا.

مِن الإيمانِ لا أملك شيئًا، سوى حقيقةِ: أنّ هذا الإلهَ بالذات متوحّشٌ وخائن، رمانا للزمان، للحاجة، لآلة الخلق المسعورة. هذا ليس تجديفًا؛ البيّنة في أشياء مشهودة: جولي واحدة، أسيّ

واحد، إحساسٌ واحدٌ يحيّر القلب، ويغيظ العقل، ويجعلني أرى أشياءَ العالم بهلع، أرى صخرةً تهذي أشجارُها في ريحٍ عشواء، أرى يدي مثل رطانةٍ مُورِقة، قبضتي تنفتح وتنغلق، فأفكّر: هل حدث مرّةً وسلّمتُ يدي لهذا السيرك، هل سمّيته من قبلُ وطنًا؟

لو كان ثمّة إيمانٌ فهو أنّ الربَّ محدودةٌ ذاتُه كليًّا بخلقه- انحسارٌ في مدى إرادته؛ ذلك أنّه قيّد ذاتَه بالدهر ومخاطره ومصادفاته مثل رجلٍ يسوط نفسه على شجرةٍ لأجل الحبّ. أنّ أفعالَ الربِّ طيّبةٌ بقدر ما نجعلها كذلك. أنّ الربَّ عاجزٌ، طفلُنا لنحملَه، طارحًا ذاته على عتبة الوقت، تتعجّب منه الماشية والثيران. الإيمان سيكون بأنّ الربَّ اندفع ويندفع مرّةً وإلى الأبد إلى "أسفل"، إن جاز التعبير، مثل غوّاص، مثل رجلٍ يحزم أمره أبدًا ليغوص فهو أبدًا في رحلة غوص، وأبدًا يشقّ بساط الماء، وأبدًا يغرق.

لو كان ثمّة إيمانٌ فهو، باختصار، أنْ ليس للربّ أيُّ اتصالٍ مقصود بنا أو بالزمان. لأنّ ما أعرفه على نحو مبين أنّ الربَّ خيرٌ كلُّه. وما أعتبره من المسلّمات أنّه مهما يكن ما يلمسه

فإنّ له معنى، حتى وإن كان بشروطه الغامضة، تلك التي أقرُّ له بها عن طيب خاطر. السؤال، إذن، ما إذا كان الربُّ يلمس أيَّ شيء. هل أيُّ شيء متين، أم هل الزمان مفلوتٌ من عقاله؟ هل هبط المسيح مرّةً وإلى الأبد عبثًا، على هيئة انتحارٍ مقدّس وبتسليمٍ كامل، أم تراه صعد مرّةً وإلى الأبد، ساحبًا صليبَه وراءه مثل سلّمٍ من حبال، نحو موطنه؟ هل ثمّة- حتى لو أنّ المسيح يمسك طرفَ الأشياء بقوّةٍ وينشر الأبديّةَ ساطعةً في عتمة الأرواح- أليس من رابطٍ في أصل الأشياء، بذرةٍ مثلًا أو أثيرٍ عميقًا في نسيج المادّة التي منها التفّ الكون كشريطةٍ مَجدولةٍ بالزمان؟

هل للربّ يدٌ في هذا؟ إذن فهي يدُ خير. لكن هل للربّ يدٌ من الأساس؟ أم أنّه نارٌ مقدّسة تتوهّج مكتفيةً بذاتها بغيةَ السُّلطان وحده؟ إذن فهو يعرف نفسه بكامل الغبطة مثل لهبٍ ليس يخبو، بكلّ الروعة والجمال والقوة، ولبقيّتنا أن يضربوا بأنفسهم عرضَ الحائط. وعليه فهذا الكون الطارئ يدور صامتًا، خاضعًا فقط لشروطه البدائيّة الخاصّة، غُفْلًا من المعنى، خارجًا عن المعقول، ووحيدًا. الكون ليس منوطًا بإرادةٍ عليا ولا شريكًا فيها، في أن يكون نفسَه، نفسَه الحقيقيّة،

في أن يكون مسرحًا لسلطان النار. الكون مجرّد وهم، ولا ذرّةَ فيه تنتمي للحقيقة، ونحن لسنا ضحاياه فقط، نهوي دائمًا في كوكبٍ أو يُهشِّمنا مقذوفًا بمقلاع شمسه، بل نحن أسراه أيضًا، مقيّدين بحبالٍ معدنيّةٍ من حواسّنا.

لكن كيف نعرف- أنّى لنا أن نعرف- أنّ الحقيقيَّ هناك؟ بأيّة مصادفةٍ غريبةٍ سينشقُّ جلد الوهم عن الحقيقيّ، الذي يبدو أنّه يعرفنا بأسمائنا، وبأيّة مصادفةٍ غريبةٍ تطوّرت القدرةُ على الإمساك به، ولماذا؟

أجلس عند النافذة، ألوك عظم رسغي. أصلّي لهم: لجولي، لأبيها جِسي، لأمّها آن، أصلّي. من سيعلّمنا أن نصلّي؟ إله اليوم نهرٌ جليديٌّ. نعيش في صدوعه العميقة المتبدّلة، ولا يُسمع لنا. إله اليوم جانح، يشعل النار في الحظائر، سافلٌ يتباهى بشحطةٍ من عود ثقاب. الوقت متأخّر، متأخّرٌ على أن نعيش. إنّها الظهيرة الآن؛ السماء صافية بشكل مروّع. كلّ شيء في المشهد يشير إلى البحر، والبحر عدَمٌ؛ مقصوصٌ من الحقيقيّ مادّةً بلا شكل، يعلو على جوانب الجزر وينخفض، معدنًا معدنًا، ملحًا.

كلّ ما أراه- الماء، الشاطئ بجذوعه المتكسّرة، المزرعة على التلّة، الجُرف، الكنيسة البيضاء وسط الأشجار- يبدو باهرًا ومشعًّا. (ما علاقة اللونِ بهذه الشمس، والشمسِ بكلّ ما عداها؟). كلّ شيءٍ يبدو مُمسرَحًا. كلُّه هشٌّ وزائف، طبقةٌ لونيّةٌ مصبوغة على زجاج، بحيث إمّا نكزتها بإصبع ستتفتّت وتتهافت. سماءٌ فارغة، ممزوجةٌ ببراعة بكلّ سماءٍ أخرى، رتَقَتْ الشقَّ في العالم حيث سقطت الطائرة، فيما الهواء أخمَد الضجّة.

إن كانت الأيّامُ آلهةً، فالآلهة موتى، والفنّانون حمقى يضيئون مثل ألعابٍ ناريّةٍ وينطفئون. الوقت كمنجةٌ ذات تروس hurdy-gurdy، قصيدةُ هجاء، والموت عاهِر. رؤوسنا تُقطَف في اللحظة الحرجة. نركض على عالمٍ يتهاوى، على زمنٍ يمور منفلتًا من المعنى، يتقلّب مثل تفّاحةٍ من تفاح أتالانتا الذهبي، دميةً منبوذةً ومنسيّة، لقد تقادم بالزمنِ الزمنُ، والآلهةُ فرّت من العدالة.

* * *

والآن خارج النافذة، من عمق الأفق، يبزغ شيءٌ جديد، كما لو كنّا نحتاج شيئًا جديدًا. إنّها أرضٌ جديدةٌ تتجلّى زرقاءَ خلف الجزر، كانت حتى الآن مخفيّةً في الضباب ثمّ ها هي تنكشف، خرساءَ كالأخريات. راجعتُ خريطتي، بقلم رصاصٍ تعوزه البراعة رسمتُ خطَّ الأفق. أجل، هذه الأرض جديدة، هذه الومضة الزرقاء المنبسطة خلف خطّ الأمس المتعرّج، خلف الوشاح الأزرق الذي قال البحّار إنّه جزيرة سالت سبرينغ. إلى متى سيدوم هذا؟ لكن دعونا من غير بُدٍّ نوسّع مدى خرائطنا.

أرسمها كما أراها، قطعةً زرقاءَ ملمومةً وراء الجزر، اهتزازةً بقلم رصاص فوق خطٍّ آخرَ مجهول، وهنا قبالة منحدرات سالت سبرينغ: على أنّي لا أدري إن كانت رأسًا ساحليًّا أم مركزًا بعيدًا عن الساحل، أم الضفافَ الضبابيّةَ البعيدةَ لمئة خليج، لا سبيل لأعرف، أم جزيرةً أم بلادًا. أسمّيها أقصى الشمال، أوّاه يا أرض جولي، أخبار الزمان السيئة، أسمّيها إرهاب، جارحة اليوم البعيدة، ناب الإله.

اليوم الثالث

قدّوس المتين

أعرف فقط ما يكفي عن الربّ لأريد أن أعبدَه، بأيّةِ طريقةٍ ناجزة. ثمّة خصوصيّةٌ لافتةٌ لكاملِ تجربتنا في المكان، خزيٌّ يتلبّس الخصوصيّة، يتبرعم من خلاله الربّ أو يمطرُ في أكثر الظروف سوءًا، ويدع طرائقَ معاملةِ خلقِه له في أيدي هواةٍ حمقى وضعيفي نظر. هذا ما نحن عليه وما كنّا عليه منذ الأزل؛ الربّ "*kann nicht anders*"[5]. هذا الصنيع بالزمان تاريخ؛ أمّا بالمكان، وبهكذا فوضى صادمة، فهو محض غموض.

(5) يحيل هذا التعبير بمعنى «لا يستطيع أن يفعل غيرَ ذلك» إلى صلاة مقتبسة للاهوتي الألماني مارتن لوثر (1438- 1546) رائد الإصلاح الديني في أوروبا: " Hier stehe ich, ich kann nicht anders" «هأنذا واقفًا بين يديك، لا أستطيع أن أفعل غير ذلك».

غشاوةٌ رومانسيّة تعلق بمفاهيم من نحو «الجُباة»، «العصاة»، «الفقراء»، «العامّة في الأسواق»، «جيراننا»، كأنّما على الربّ أن يكشف عن نفسه، إن كشف عنها، لهؤلاء البسطاء، لهذه الشخوص المرسومة بالألوان المائيّة في مدارس الأحد، الأنقياء بملابسهم الرثّة، وذواتِهم الواحدة، فيما نحن الآن متعدّدون، معقّدون، موغَرو الصدور ومولَعُو القلوب. نحن مشغولون. أظنّ أيضًا، بل أجزم الآن، أنّهم كانوا مثلَنا. من سيصعد تلّة الربّ إذن؟ أو من سيقف في أرضه المقدّسة؟ لا أحدَ سوانا. لا رسولَ ليُبعَث، لا يدَ طاهرةٌ، لا نفسَ زكيّةٌ على وجه الأرض، ولا في باطن الأرض، سوانا نحن فقط، سوى جيلٍ يُطمئن نفسَه بتصوّرِ أنّنا أتينا في مرحلةٍ حرجة، أنّ أسلافَنا الأطهارَ ميّتون كلُّهم- على افتراض أنّ أحدًا ما طاهرًا قد وُجِد- وأطفالَنا قلقون مضطربون- وأنّنا نحن أنفسَنا غيرُ صالحين، قُطفنا قبل الأوان، أُصْطُفينا بالخطأ، وبدأ كلُّ واحدٍ منّا بدايةً خاطئة، فشلنا، لجأنا للبديهة، عَلِقنا في بحبوحة المُتَع، وأُرهِقنا، غيرَ قادرين على التماسِ الخيط الرفيع، متورّطين، وقليلي حيلة. لكن ما من أحدٍ سوانا. لم يكن قطّ من أحدٍ سوانا. أجيالٌ تذكّرتْ، وأجيالٌ نسيتْ؛ لم يمرّ جيلٌ بكامل نسائه ورجاله قد عاش هانئًا وإنْ ليومٍ واحد. لكنّ بعضَهم تخيّل، بالبصيرة

والفن، تفاصيلَ حياةٍ كهذه، ووصفها برشاقة، حتّى اختلطتْ علينا الرؤيةُ بالتاريخ، والحلمُ بالوصف، وتوهَّمنا أنّ الحياة قد تدهورت. إلى حدٍّ بعيد. تعرف ذلك بدراسة أيّ تاريخ، خصوصًا ما يتعلّق بحياة الفنّانين والمفكّرين؛ تتعلّمه من إمرسون، من لاحظ أنّ لؤمَ أيّامنا جديرٌ بالتأمل؛ وتتعلّمه، مُزعزَعَ الروح، على مقاعد الكنيسة.

* * *

توجد كنيسةٌ واحدةٌ هنا، لذا أذهب إليها. في صباحات الأحد أعتزل المنزل وأتمشّى على انحدار التلّة إلى الكنيسة المؤطّرة بالبياض بين أشجار التنّوب. في الآحاد الكبيرة نبلغ قرابة عشرين شخصًا؛ عادةً ما أكون الشخصَ الوحيدَ دون الستّين، وأشعر كأنني في رحلة لاكتشاف الآثار عبر روسيا الاتحاد السوفييتي. الأعضاء من طوائف مختلفة؛ القسّ من الكنيسة الأبرشيّة، ويرتدي قميصًا أبيض. الرجلُ يعرف الربّ. مرّةً، في منتصف صلاةٍ طويلةٍ تستشفع لأجل العالم كلِّه- تستنزل الحكمةَ على زعمائه، والأملَ والرحمةَ على الآسين والموجوعين، وتستغيث للمستضعفين، وتسأل أن

يُنعم الربُّ بألطافه على الجميع- في منتصف هذه الصلاة توقّف، وانفجر صارخًا، «ربّاه، نضرع إليك بهذه الدعوات نفسِها كلَّ أسبوع.» ثم بعد وقفةٍ مذهولة، واصل قراءة الصلاة. لأجل هذا، أحبّه جدًّا. «صباح الخير!» يقول بعد أولى التراتيل والابتهالات، مباغتًا إيّاي غائبةَ الذهن في كلّ مرة، ونردّ له التحية بصوتٍ واحد، «صباح الخير!»

خادمات الكنيسة يحضرن الزهور إلى المذبح، يُجَرْجِرن تنسيقاتٍ بحجم عرائش، من أعشابٍ موسميّة نَمَتْ على جانب الطريق، وأزهارٍ مقطوفةٍ من حدائقهنّ، باقاتٌ هائلةٌ يبلغ طولُها طولي مزدانةٌ بأوراق النبات وبراعم الشجر وأغصانه المزدهرة، في مزهريّات بسعة أحواض، والمذبح مع هذا يبدو خاليًا، رماديَّ اللون مشمّعَ الأرضيّة بصورةٍ لا تقبل التعديل. ذات مرّة، كنّا في حضرة مغنّيةٍ بئيسةِ الغناء، ضيفةٍ من رعايا الكنيسة الكنديّة، فتاةٍ شقراءَ عريضة بشعرٍ مقصوص وكتفين ضخمتين، ترتدي نظّارةً ملوّنةَ العدسات وفستانَ دانتيل طويلًا، غنّت، متبسّمةً للرفقة المترنّحة، أغنيةً لا علاقة لها بأيّ شيءٍ أخرويّ، خالصةً كلّها للتغنّي بالجبال. لم يكن شيءٌ ساعتَها أكثرَ جلاءً من أنّ الربَّ أحبَّ هذه الفتاة؛

كما لم يكن لشيءٍ أن يقنعني برحمة الربّ المطلقة أكثر من وجود الكنيسة المستمرّ على وجه البسيطة.

في الكنائس الطقوسيّة [High Church] - إليها، لو كنتُ منتميةً، أنتمي- يُجابَه الرب بنفحةٍ لا داعي لها من المهنيّة الرفيعة، مع نفوذٍ وأُبّهة، كأنّهم على علمٍ بما يفعلون، كأنّما الناس في ذواتهم كانوا مجموعة كائنات يليق بها أن تتعامل مع الربّ. أفكّر كثيرًا بالقدّاس أو بأيّ طقس ديني حيث كلماتٌ بعينها نجح الناس عبر أزمان في توجيهها إلى الربّ دون أن تنالهم نقمتُه. إنهم يتمشّون في الطقوس والشعائر كعمّال بناء من قبيلة الموهوك يذرعون سقّالةً منصوبة متناسين مع الوقت خطورةَ ما يفعلون. أحسبهم حقًّا سيصعقون من هول الصدمة لو حوّل الربّ كنيسةً كهذه إلى شظايا. أمّا في الكنائس المتخفّفة من الطقوس [Low Church] فإنهم يتحرّونه أن يفعلها في أيّة لحظة. هذا هو ابتداء الحكمة.

* * *

اليوم الجمعة، 20 نوفمبر. جولي نوريتش في المستشفى، أصابها الحريق؛ ولا كلمةَ تُطلِعنا على حالتها. نسبة عالية ممّن يغادر أقسام علاج الحروق، قرأتُ مرةً، ينتحرون. ما كانوا قد أدركوا قبل أن يحترقوا أنّ الحياة قد تنطوي على معاناةٍ كهذه، ولا أنّهم شخصيّا قد يتسامحون مع العيش بألمٍ كهذا. لا دواءَ يُبلسم أوجاعَ حروقٍ من الدرجة الثالثة، لأنّ الحروق تُدمِّر أنسجة الجلد: الأدوية تنسرب ببساطةٍ من الملاءات. سأل المسيحَ حواريّوه عن متسوّلٍ بالطريق فقد البصر وليدًا، «خطيئةُ مَن؟ هل أذنب الرجل أم كانت جنايةَ أبويه أن يولد أعمى؟» والمسيح، من بصق في الأرض، ومزج بيديه من ذلك طينًا، مسح بالطينة على عيني الرجل، ومنحه نورَ البصر، أجاب: «لا هذا أخطأ ولا أبواه: إنّما لتظهر فيه جليّةً أفعالُ الربّ.» حقًّا؟ لو استدللنا بهذا على البلاء نفسه- دون الشفاء- «لتظهر أفعالُ الربّ»، مع قوله «ليس كما يعطي العالم، أعطيكم أنا»، لكان لدينا إجابتان متداخلتان، محيّرتان ومثيرتان للسخط على واحدٍ من الأسئلة القليلة التي تستحقّ الطرح، بسخريةٍ طبعًا، ما الذي بحقّ الجحيم يجري هنا؟

أفعال الرب تظهر جليّةً؟ أنحتاج حقًّا إلى ضحايا أكثر لتذكيرنا

بأنّنا جميعًا ضحايا؟ هل هي مسيرةٌ من نوعٍ ما يظهر خلالها الجيشُ الغالبُ مزهوًّا بأسلحته المدمّرة تسطع على امتداد الشوارع ليراها الناس؟ أنحتاج عميانًا يتعثّرون في المشي وأطفالًا صغارًا مشتعلي الوجوه، لتذكيرنا بما يمكن للربّ فعلُه وبما- سوف- يفعله؟

أحتسي الآن قهوةً مغليّة وأشاهد الخليج من النافذة. أغلب من نشروا شباك الصيد سحبوا معدّاتهم لأجل الشتاء، موسم أسماك السلمون قد انتهى، ساعات النهار قصيرة. إنّما لم تزل، قواربُ تغدو وتروح على الماء- ناقلاتُ نفط، زوارقُ وعبّارات، مراكبُ تجديف وسفنٌ شراعيّة. هناك حيتانٌ إن كنتَ محظوظًا، أسرابٌ من البطّ المبرقش إن كنتَ محظوظًا، وكلَّ يوم هناك الأسقطور[6] والطيور الغطّاسة. كم أطنانًا من السماء أستطيع رؤيتها من النافذة؟ إنّه الصباح: الصباح! والماء سكرانُ بالضوء. أجل، في الحقيقة، نحن نحتاج للذكرى. نحتاج إلى تذكيرنا، لا بما يقدر عليه الربّ بل بما لا يقع في نطاق قدرته، أو بما لن يفعله، أي بانتهاب الوقت في سقوطه الحرّ وإلصاقِ ما قيمته عشر سنتات من المعنى على أيّامنا.

(6) نوع من الإوز.

ونحتاج إلى تذكيرنا بما يستطيعه الدهر، ما يجب أن يفعله فقط: أن يمخض فظائع الأيام كيفما اتّفق ويضربَ، بمباركةِ الربّ، زبدتَها على رؤوسنا- أنّنا خُلِقنا، خُلِقنا، عابرين في أرضٍ لم نوجدها، أرضٍ لا معنى لها في ذاتها ولا معنى نستطيع وحدنا إضفاءه عليها؟ من نحن لنطالب الربّ بالإيضاح؟ (وأيّ وحوشٍ كمالٍ ينبغي أن نكونها إن لم نفعل؟) ننسى أنفسنا، بالذهاب في نزهة؛ ننسى أين نحن. لا وجود لحدثٍ غرائبيّ. «الربّ في الوطن،» يقول ميستر إكهرت[7]، «نحن في البلاد البعيدة».

نحن على بُعد ضغطة زرّ من أن نغرق عميقًا في النوم إذ نتوهّم أنّنا نتحكّم بأيّ أزرار على الإطلاق. ننام على كمنجة الوقت ذات التروس؛ ونصحو، إن صحونا، على صمت الإله. ثمّ، حينما نفيق في الأزل على سواحل الضياء العميقة لمّا تُخلَقْ، ثم حينما تتشقّق العتمة الباهرة فوق منحدرات الزمان البعيدة، فلقد حان وقتُ أن نرميَ بالأشياء، أشياء مثل منطقنا، وإرادتنا، نطوّح بها؛ ثمّ إنّه الوقتُ حينئذٍ كي نكسرَ أعناقَنا للوطن.

* * *

(7) ميستر إكهرت (1260 - 1328) فيلسوف ولاهوتيّ مسيحيّ اتُّهِم بالهرطقة.

لا شيء يحدث سوى الأفكار وتقلّبات المزاج العنيفة، سوى القلب يتعلّم ببطء مَن يُحبّ وأين. الباقي مجرّد إشاعات، وحكايات من أزمنة أخرى. إله اليوم شجرة. إنّه غابة أشجار أو صحراء، أو إسفينٌ مغروس بعرض الأفق وحول طرفه الأدنى نثار نجوم، نجوم كالملح، خفيضة وغبيّة ومطيعة. قال إله اليوم: اخلعْ جلدك. فلم يزل يتقشّر من كينونة الأبد، منتشرًا في الأنحاء؛ يلتفّ في الزمان مثل لحاء شجر. أنا على طريق، أو يبدو أنّني على طريق، أمشي. العرائشُ موجودةٌ حيث كانت. هناك زاوية، وتلّة طويلة، ولمحةُ ثلجٍ على رؤوس الجبال، منحدرٌ مزروعٌ وسطَ أشجار التفاح، ومتجرٌ بجوار مرعى، حيث سأذهب لشراء نبيذ القربان المقدّس.

أنَّى لي أن أشتري نبيذَ القربان المقدّس؟ من أنا لأشتري نبيذًا لمأدبة الرب؟ لا بدَّ أن يشتري شخصٌ ما نبيذَ القربان المقدّس. لقد كانت فكرتي أن نشرب نبيذًا بدل عصير عنب، وبالطبع عرضت أن أتولّى شراءه. ألا يجب أن أرتدي ثيابًا، وعلى الأخصّ، أن أضع قناعًا؟ ألا يجدر بي أن أصنع نبيذ القربان المقدّس؟ أهناك عنبٌ مقدّس؟ هل ثمّة أرضٌ مقدّسة، هل أيُّ شيءٍ هنا مقدّس؟ ما من عنبٍ مقدّس، ما من أرضٍ مقدّسة،

ولا أحد في الأرجاء سوانا. أرتدي معطفًا شتائيًّا بقلنسوة من الفرو وأحمل حقيبة ظهر على كتفيّ؛ بردٌ، وأريد ليديّ أن تظلّا في جيوبي. بحسب مبادئ القدّيس بنديكت، يجب أن أقول، أيدينا في جيوبنا. «كل شيءٍ منك، يا ربّ، ومن خاصّة ملكك أسلمناك إيّاه». لا بدّ من تعاليم خاصة بشراء النبيذ المقدّس. «أنقدًا ذاك يكون أم نسيئة؟» كلّ ما أدريه أنّني حين أذهب إلى هذا المتجر- لشراء بيض، أو ورق صنفرة، قرنبيط أخضر، مسامير، حليب- أحب أن أعاكس قليلًا، إن أعطاني فرصةً، ابنَ صاحبَي المتجر، من يصادف أن يكون اسمه تشاندلر، ومن يحبّ العبث بعلب المسامير.

وهكذا، ناسيةً نفسي، شكرًا للربّ: حيّهلا. حيّهلا، ترحيب قصير وجديد نسبيًّا، أهلًا مرّةً أخرى في أرض الأحياء، في الدهر، في هذه التلّة من البذور. تشاندلر لن يلقي بالًا، كعادته، لأيٍّ من هذا الهراء. لديه مستشاره الغامض. وأنا خارج المتجر على الطريق من جديد، أمشي، يدي اليمنى تنسى أختها اليسرى. أنا في الخارج على الطريق من جديد، أمشي، وأحمل على ظهري مأدبة الربّ.

* * *

هنا قنّينة نبيذ بعلامة تجارية، المسيح بسدادة فلّين. أحمل القَدَاسةَ في زجاجة، إلهَ إلهٍ، الصمتَ الصمدَ السرمدَ شخصيًّا وأسيفًا، ساطعًا خلف أضلاعي. وأبدأ صعودَ التلّة.

العالم يتبدّل، الطبيعة تتجاوب كتيّارٍ يتدفّق. يبدأ بعضُها يتركّب مع بعض، على أنّ إحداثيّات الشمال تتحرّك في الفضاء ولا أثرَ للريح. يبدأ المنظر في نطق خصائصه المطلقة، كلٌّ متداخلٌ ووحدانيّ، كتلالٍ مئةٍ تتنابح كلابُها. العرائش من العلّيق والتوت الأسود، وحَبِّ الثلج الأبيض، وورودِ المسك، ونباتٍ بقوليّ مبعثرِ الزهورِ نحيلِ الغصينات. جذورها العارية تبتدئ العيش ذاهبةً في أعماقها، خفيّةً تعيش كما تعيش نارٌ ملمومةُ الرماد، وواضحةً تعيش كما تشعّ أضواءُ التعرّف، صامتةً، من الأعين. الجبالُ من فوقِ أعصابٌ حسّاسة ونشوانة؛ ومن تحتي بتلاتُ العقل الحيّة، الأشجارُ، والعشب، والإسفلت، كلّ بتلةٍ حادّةٌ وغيرُ مرئية، مخبوءةٌ في تحيّة أو في لمحةٍ كاملةٍ بديعةِ الخلق. ثمّة ما هو ممتدٌّ أو محتشدٌ حول السماء، كلّما قاربتُه يتلاشى. لماذا يوجد كلّ هذا التفّاح في العالم، ولماذ كلّه رويانُ وشفّاف؟ وأنا عبر كلّ ملابسي، عبر الحمولة على ظهري وعبر زجاج القنينة، أحسُّ بالنبيذ. أغذّ

السيرَ، لا وزن لي، أحسُّ بالنبيذ. يلقي الضوءَ شرائحَ عبر قفصي الصدري، ويملأ قناطرَ أضلاعي بالنور مائجًا وبهيجًا.

كلّ شيء في العالم شفّافٌ، حتى الماشية، ومتحرّكٌ، خليّةً خليّة. أتذكّر هذا الواقع. أين كان يا ترى؟ أُبحر نحو رأس التلّة كأنّما أصعد موجةً هادرة قد علا عبابها. أرى الخليج، متفجّرًا، تتبدّل صورته أسفل مني، خليجَ المياه المالحة، بعيدًا أسفلَ التلّة وراءَ الطريق إلى منزلي، وراء أشجار التنّوب والكنيسة وأغنام المرعى: الخليج مستعرٌ والجزر تشتعل ووراءها بلا حدود، تَقبِسُ اللهبَ متأجِّجةً هذه السماءُ المتفكّكة. كِسَفٌ من السماء تسقط. كلّ شيء، كلّ شيء، كُلِّيٌّ، وجزءٌ من كلّ شيء آخر. أنا نفسي أتداعى، ببطء، أو ببطء أتسامى. على شاطئ الخليج المفروش بالحصى ناسٌ أطفو وسطهم، ناسٌ حقيقيون، اجتماعُ ظهيرةٍ ما، من خلايا جلدِ أحدهم تنبثق أشتاتًا خيوطُ مياهٍ ملوّنة، تلهب الأجواءَ نارًا من جديد.

المسيح يُعمَّد الآن. الشخص الذي هو المسيح هناك، والشخص الذي هو جون، والآخرون الضبابيّون منتصبون على الحصى أو قاعدون على أخشاب الشاطئ بعيدًا من الخليج. هؤلاء

ناسٌ عاديّون- لو أنّني عاديّةٌ الآن، لو أنّ أولئك قطيعُ أغنام عاديّة تثغو أغنيةً في المرعى.

الرجلان عاريان إلى الخصر. الشخص يقوده إلى الماء، ويغمره فيه. يده قابضة على عنقه. المسيح أبيض ومغمورٌ تحت الماء، يقف على الحصى.

يطلع من الماء. حبّات الماء على كتفيه. أرى الماء مثل خرزات ثقيلةٍ ثقلَ أكوان، مليارَ خرزة مائيّةٍ بوزن عوالم، ويحملها على عاتقه بينما يطلع من الماء. يقف مبلّلًا في الماء. كلّ حبّة ماءٍ شفّافةٌ، وفي كلّ واحدةٍ عالَمٌ، أو العالمُ نفسُه، خفيفًا وجلّيًّا ومفعمًا بالحياة داخل القطرة: كلّ ما هنالك وكلّ ما قد يكون، يتحرّك جملةً واحدة، ماضيًا ومستقبلًا، وكلّ الناس. أستطيع أن أنظر في أيّة حُبيبة وأرى الناس يتدفّقون من حولي، ويُلطّفون عينيَّ بالألوان وبمرأى العالم أبدًا يبيد وأبدًا يُبعَث من جديد. أنظر؛ أتعمّق في قطرةٍ وأرى كلَّ ما يحويه الزمان، كلَّ الوجوه وأعماقَ العوالم وكلَّ مكوّنات الأرض، كلَّ غرفة وكلَّ مشهد طبيعي، كلَّ شيءٍ حيٍّ أو مصنوعٍ على مثال أو مستحدثٍ من العدم، كلَّ نجوم المستقبل والماضي، لا سيّما

الوجوه، وجوهٌ كأنّها خلايا كلّ شيء، وجوهٌ تنهمر من بين يديّ ناطقةً، وراحلةً، وقد رحَلَتْ. وأنا رحَلَتُ.

ساطعةٌ من الخارج. سطح الأشياء خارج القطرات قد اندمج في بعضه. المسيح نفسه والآخرون، والريح البنيّة الدافئة، والشَّعر، السماءُ، الشاطئُ، الماءُ المتكسِّر- كلّ هذا قد اندمج. إنّه نور القداسة؛ بادٍ وتعجز عنه الصفة. لا كلامَ ولا لغة؛ لا شيءَ، ولا أيَّ شيءٍ بعينه، ولا حركةَ، ولا وقت. ليس سوى هذا وهذا هو كلّ شيء. ليس سوى هذا، وصوتِه المتعدّدِ والساطع.

* * *

يبدو أنّني على طريق، واقفة بلا حراك. إنّها قمّة التلة. العرائش هنا، تستريح. يداي في جيوبي. قنّينةُ نبيذٍ على ظهري، نبيذٍ أحمرَ من كاليفورنيا. أرى قدميّ. أنزل من التلّة متّجهةً إلى البيت.

* * *

عليكِ أن تستريحي الآن. لا أستطيعَ إراحتَكِ. لأنّه في نظري، أحاول أن أخبرك، ليس هناك وقت.

* * *

هنالك ألف جزيرة جديدة اليوم، مجهولة. هي صخورٌ ملحيّة تحترق ويخفت بريقها؛ أقرأ على ضوئها. ترتمي القطّة سمول على عنقي. في الحمّام تشتغل العنكبوتُ على عثّة الأمس.

تقترح الباطنيّةُ المسيحيّةُ، قرأتُ، عنصرًا. عنصرًا مُحْدَثًا، تضعه في مستوى أدنى من المعادن والفلزات على "مقياس روحي"، وأدنى من الأملاح والتربة، يوجد تحت الأملاح وطبقات التربة في العمق الشمعيّ للكواكب، لكنه لا يظهر أبدًا على السطح حيث يمكن أن يستنبطه البشر؛ وإنّه متّصلٌ بالمطلق، عند القاعدة. متّصلٌ بالمطلق! عند القاعدة. اسم هذا العنصر: قدّوس المتين Holy the Firm.

قدّوس المتين: وهل في قدّوس المتين أثرٌ من المعادن والفلزات؟ من الأملاح والتربة؟ بالطبع، ومن كلّ ما فوقها، إلى أن ينثني

الـ"فوقُ" عائدًا. هل لشيءٍ قد مسَّ شيئًا مسَّ قدّوس المتين أن يتّصل بالمطلق عند القاعدة متسرّبًا إلى المياه الجوفيّة، إلى البذور؛ هل الجُزُر متجذّرةٌ فيه، والأشجار؟ بالطبع.

فرّق الدارسون منذ وقتٍ طويل بين طريقتين للتفكير منتشرتين في الغرب تفرّعتا أساسًا من المعرفة البشريّة بالربّ. في الطريقة الأولى، عند مترهبنةِ المسيحيّة الغيبيّين، العالمُ منفصلٌ عن الربّ. ناشئٌ عنه، ومرتبطٌ به بواسطة المسيح، العالم رغم ذلك بصورةٍ مطلقة شيءٌ آخرُ غير الربّ، ملتفٌّ في بعضه بعيدًا عنه مثل نهايةِ لواءٍ طويلٍ يهوي. يرسم هذا المفهوم، كما أتصوّره، خطًّا عموديًّا للعالم، سلسلةَ احتراقٍ عظيمة. أمّا طريقةُ النظر الأكثر قبولًا وكونيّة، كما ارتآها إكهرت وغيره كثير في صورٍ متعدّدة، فلا تختلف كثيرًا عن وحدة الوجود: أنّ العالم فيضٌ، أنّ الربَّ حالٌّ في الشيء، وأبديُّ الوجود هنا، إن لم يوجد في أيّ مكانٍ آخر. العالم في ضوء هذه الرؤية صاعدٌ على متن طائرة أفقيّة، مفرَدًا، كلّه هنا، غاصًّا بالسماء، ووحيدًا. لكني أعلم أنّه ليس وحيدًا، ولا مفردًا، ولا كلَّ هذه الأوصاف. مفهوم الحلول يحتاج معالجة، والفكرتان ذاتهما بحاجةٍ إلى رابط، بحيث يمكن للحياة أن

تعني صفرًا لشخص، وأن تعني المسيحَ لشخصٍ آخر.

لأنّه في ما يتعلّق بالحلول، في ما يتعلَّق بالقلب، المسيح فائضٌ عن الحاجة وكلُّ الأشياء واحد. أمّا في ما يتعلّق بالمباينة، في ما يتعلّق بالعقل، فإنّ المسيح يمسح القمّة فقط، يشرف على القمّة فقط، كأنّما هي أرواحُ البشر، حبوبُ القمح بقشورها، ثم يغربلها ويلقي بالقشور وعصف السنابل إلى أين يا ترى؟ إلى العالم مسطَّحًا وغيرَ مستصلَح؛ إلى كل الباقي من الكون، غيرَ ذي علاقة وغيرَ ذي شراكة؛ إلى الزمان والمادّة، غيرَ حقيقيّين، وغيرَ مُدرَكين، إلى مسرحٍ وهميٍّ، غريبٍ، طارئٍ، وبالغ التعقيد.

لكن إذا كان قدّوسُ المتينُ «تحت الأملاح»، إذا كان قدّوس المتين هو المادّة في أكثر حالاتها خمولًا، مادّة أرسطو الأولى *materia prima*، الصفر المطلق، وما دام أنّ قدّوسَ المتين يتّصل بالمطلق عند القاعدة، فالدائرة إذن غير منقطعة. وإنّها لكذلك. يتقدّم الفكر، ويبدع العالَمُ نفسَه، بالطرح التدريجيّ لسلسلةٍ من الأفكار الرائعة، والإيمان بها. الزمان والمكان متّصلان بالمطلق عند القاعدة. الأبديّة تخلق تجويفين في منحني الزمان والمكان، مرتبطَين بفكرة. المادة والروح من جذرٍ

واحد غير أنّ التمييز بينهما ممكن؛ للربّ رهانٌ مضمونٌ في كلّ العالم. والكون حقيقيٌّ وليس حلمًا، ليس صنيعةَ الحواس؛ الذات قد تُلِمّ بالموضوع، المعرفة قد تُستكمَل، وقدّوس المتين هو باختصار حجر الفلاسفة.

* * *

هذه أفكارٌ فقط، حفنةُ اليد الواحدة. خطوط، خطوط، ونقاطها اللامتناهية! شُدّ يديك ولَوِّحْ بالسوط، وانتزعْ المطلق من هناك وأخرجه إلى النور، الإله شاحبًا ومبهوتًا، راشًّا دوّامةً من الأملاح والأتربة، الإله طريحًا وطليقًا. ويصرخ في أذنه البيضاء العابرة في المستقبل، «سيدي العجوز! أتمنع المكان من أن يحدودب بإصبعٍ تغرسها في فتحته؟ إيه أيّها العجوز! أين يدك الأخرى؟» يمناه قابضة، في هدوء، على اليد اليسرى المتفجّرة لقدّوس المتين.

* * *

كيف يتسنّى للناس الظنُّ بأنّ الفنّان يبتغي اسمًا؟ الاسم، كالوجه، شيءٌ تحظى به عندما لا تكون وحدك. لا وجود لشيءٍ اسمه فنّان: هناك العالم فقط، مضاءً أو غيرَ مُضاء حسب ما يسمح به النور. عندما تحترق الشمعة، من ينظر إلى الفتيلة؟ عندما تنطفئ الشمعة، من يحتاجها؟ لكنّما العالم دون ضياء بلقعٌ وفوضى، وحياةٌ دون تضحيةٍ رِجْس.

ماذا بوسع أيّ فنان أن يُحرِق في النار غيرَ عالمه؟ ماذا بوسع أيّ ناسٍ أن يُحضروا إلى المذبح غير ما امتلكوه في البلدات الضاوية أو ما وجدوه في البراري المقفرة؟ ماذا بوسع فنّانٍ أن يستخدم غير الموادّ، على علاّتها؟ ماذا بوسعه أن يُشعل غير الخيط القصير لأحشائه، وحينما تأتي عليها النار، هل يبقى من دَرَنه شيء؟

وجهه لهبٌ كوجه ملاكٍ من السارافيم، يضيء مملكة الربّ ليراها الناس؛ تترقّى حياته في الأعباء؛ قدماه شمعيّتان ومالحتان. إنّه لقدّوس وإنّه لمتين، يطيل أمد الفسحة الطويلة بمدى حبه، في تقليدٍ خائبٍ للمسيح على الصليب مطوَّقًا بالشوك وممدّدًا من الجانبين دون انقطاع. كذا يجب أن يكون العمل أيضًا،

متّصلًا، متّصلًا، متّصلًا؛ مطيلًا أمدَ الفسحة، من هنا إلى الأبديّة، بالوطن الأمّ.

مرحى! كلُّ ما أراه أقواس، وضوءٌ يتقوّس حولها. الهواء يمخض القُوى ويُخرج الأرضَ العَجَب. مئةَ مرّةٍ عبر الحقول وعلى طول الطرق العميقة هتفتُ قدّوس. أرى مئة حشرةٍ تتحرّك في الهواء، تعلو وتهبط. نوتاتٌ مقتطعةٌ من أغنية طائرٍ تتدلّى من الأشجار، مُنغَّمَةً ومُجرَّحة، تتهافت النوتات من حولي متكوّمةً كأوراق الشجر. لماذا تُغيّر هذه الغيومُ المتشكّلةُ فوقي صورَها ببراءة، تابعةً آثارَ ظلالِها الزرقاء الممتدّة فوق كلّ شيءٍ وتحتَه، وعابرةً، وغائبة؟ سيّداتي وسادتي! ها إنكم قد أوتيتم حشراتٍ، وأغنيةَ طائر، وسلسلةَ غيومٍ متجدّدة. الهواء كلّه شفّافٌ ومنعش، مصقولٌ بالعشب. الأرض المغروزة خلاله منتنة، مضاءة، ومالحة. من سيصعد تلّة الرب؟ من سيقف في أرضه المقدسة؟ «من سأصطفيه رسولا،» سمعها إشعياء الأول، «ومن سيذهب لأجلنا؟» وإشعياء المسكين، من صادف أن يكون واقفًا هناك- ولا أحد غيره هناك- صرخ، «هأنذا، فابعثني رسولا.»

هناك جولي نوريتش. جولي نوريتش مملّحةٌ بالنار. محفوظةٌ مثل شريحة لحم مملّحةٍ من كل شر. معمّدةٌ عند الولادة في الزمان والآن في الخلود، بين ذراعي الربّ المسنونتين كشفرتي سكّين. لأنّه من ترى سيحبّها الآن، دونما وجه، حين النساء تفيض وجوههنّ، والناس كذلك؟ الناس محكومون بالمنطق بينما الربّ مفلوتُ العِقال. هم يحبون الجمال فقط؛ من يدري ما يحبّه الربّ؟ عيد ميلاد سعيد أيتها الصغيرة والحكيمة: وصلتِ هناك باكرًا، بالطريق السهلة. عرفكِ العالم قبل أن تعرفي العالم. الآلهة في ألعابها الصبيانيّة، الوحشيّة حملتك مثل شعلة، مثل جذوة، باستهتارٍ فوق السماوات، إلى نظرةٍ من الربّ الأوحد، مبهمةٍ ورقيقةٍ، أذابتك في الملاءات.

لعلّكِ أيضًا أن تكوني راهبة. لعلّكِ أيضًا أن تكوني عروسَ الربّ العفيفة، يلاحقها النهّابةُ إلى كهوف العزلة العالية. إلى الغرفِ القاسية بلا قلبٍ فارغةً من الأصوات، وخاليةً من الأيدي الدافئة معلّقةً قلبَك طُعمًا للعالم. انظري كيف يحبك! هل جراحُك مضمّدة الآن، أم مكشوفةٌ في غرفةٍ معقّمة؟ انتظري حتى يعطوك مرآةً، لو أمكنك إمساكُ واحدة، واعرفي المعنى وراء ما ترين. انعدامُ الجلد ذاك، ذاك الكفنُ الأسودُ من اللحم

شرائطَ على جمجتك هو وشاحُك. هناك نوعان للراهبة، خارج الدير أو داخله. في وسعكِ أن تخدمي أو أن تغنّي، وتحطمّي قلبك في الصلاة، كادحةً في العمل الشاقّ للعالم. انسي التصفير: لا شفاه عندك لذلك، أو لتقبيلِ وجهِ رجلٍ أو طفل. تعلّمي اللاتينية، مرضاةً لربي، تعلّمي النظرة الخفيضة الحمقاء المسمّاةَ غضَّ البصر.

وتعلّمي القوّة، مهما يكن حلوًا ما ينادونك به من أسماء، تعلّمي القوّة، ضربة الربّ الساحقة مرّةً أخرى، وموقّعة باسمه. كوني ضحيّةَ الفجاءةِ ونوباتِ الصرع، والأحداثِ مقحمةً، وأورامِ القلب. سوف تتسلّقين الأشجار. لن تستطيعي النوم، أو لن تحتاجيه، تلذّذًا به. الصباحات، عندما ينشر الضوءُ أجنحتَه فوق المروج، ويضفي لونًا سريًّا على كلّ شيء، ويخبط الأشجارَ بالجمال دون حتى أن يُحِسَّ بها أو تُحِسَّ به، فلا تدري إن كان الجمالُ أصلًا في الأشجار- برّاقًا في الخلايا مثل شراراتٍ صفراء أو أمواهٍ وامضةٍ خضراء- أم على الأشجار- هواءً فضيًّا يخلق حولها هالةً من الجلال محفوفةً بحركة الأجنحة الخفيّة؛ الصباحات، لن تستطيعي المشي تقوّيًا به: الأرض في غاية الاستدارة. وقبل نهاية يومٍ طويلٍ وصحو- صلاةُ سادسِ

ساعةٍ بعد الفجر Sext، صلاة تاسعِ ساعة None، صلاة المساء أو المغرب Vespers- حين العشب، حيُّه وميّتُه، يأخذه النعاس بينما تدير الشمس بكرتها أو تلسع بسياطها أيّةَ ريح، حين العصافير تخلد للصمت، والمدّ يتثاقل عند الجَزْر، أو يغمر الشطآن وجوانبُ الحَيْد متشابكةٌ بالطحالب، وعلف الدوابّ ينتظر، والناس في أماكن أخرى يشترون الأحذية- ثمّ تجثين، مشتتةَ الأفكار، مريضة، أو في بعض الأيّام تنفجرين، وفي أيّامٍ تتعلّقين بحاجز المذبح، تقبضين بشدّة على الرتاج النحاسي، كي لا تطيري. أتعتقدين أنني لا أصدّق هذا؟ ليس لديك أدنى فكرة، لا فكرةَ بالمرّة. والليالي؟ لياليَ بعد صلاةِ آخرِ اليوم Compline تحت أضلاع الجوزاء، لياليَ في الغرفِ عند المصابيح أو لصقَ النوافذ مثل فراشات عثّ؟ لياليَ تبصرين بعينٍ واحدة نجمَ ذنبِ الدجاجةِ ساطعًا فوق الأشجار؛ فتختفين في الملاءات، تنكمشين، عيناك مشعّتان وعمياوان مثل شمعتين، قد هدّك التعب. لياليَ مُرزم، ونجمِ السّماك الرامح، ونجمِ الدبران في برج الثور: تبكين ضارعةً: «أبي، يا أبي، مركبة إسرائيل وفرسانها!» صمدتْ، ظلّت صامدةً بفضل الحبّ في العالم مثل العثّة في الشمعة، حياتكِ ذُبالة، رأسك في النارِ يتلظّى في صلاة، يتلظى صامدًا كلّه، من الخارج والداخل،

تنامين وحيدةً، لو سمّيتِ ذلك وِحْدةً، تبكين ضارعةً ربّاه.

جولي نوريتش؛ أدري. سيصلح الجرّاحون وجهك. وسيكون هذا كلُّه حلمًا، حكايةً، شيئًا تروينه لزوجك في إحدى الليالي: لقد احترق وجهي ذات يوم. أم إنّه إذا تركت النارُ فيكِ ندوبًا، فقد تركتْ فيكِ ندوبًا، أنتِ مجروحةٌ أبدًا. الناس يحبّون الطيّب بقدرِ ما يحبّون الجميل، والسعيدَ كذلك، أو حتى الحيَّ فقط لأجل العالم المخبوءِ في كلّ هؤلاء، والقلب هو الوطن. سوف تلبّسين صغارَكِ، حاشرةً أذرعَهم في الأكمام. الصباحاتُ التي ستصفّرين، حافلة بمتعة الأيام، وأوقات الظهيرة هذه أو تلك، والليالي هاتفة بالحب. عيشي إذن. من أجلكِ سوف أكون أنا الراهبة. أنا الآن راهبة.

1977

Annie Dillard آني ديلارد (1945 -) كاتبة أمريكية ذائعة الصيت. برعت، إلى جانب كونها شاعرةً وروائيّة، في فنون السرد غير التخييلي nonfiction. صدرت لها روايتان وكتاب مذكرات. نال كتابها (Pilgrim at Tinker Creek) جائزة بوليتزر عام 1975. درّست ديلارد الإنجليزية في جامعة ويسليان واحدًا وعشرين عامًا.

سلمان الجربوع - شاعر ومترجم من السعودية (الرياض، 1978). يحمل ماجستير اللسانيات من جامعة كوينزلاند في أستراليا وبكالوريوس اللغة العربية وآدابها من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض. صدر له: ضباب أليف (2018)، ومحاولة حائط للتعبير عن قلقه (2016). وفي الترجمة: أساطير الخريف (2019)، ثلاث روايات قصيرة للكاتب الأمريكي جيم هاريسون.

قدّوس المتين

«هذا الكون الطارئ يدور صامتًا، خاضعًا فقط لشروطه البدائية الخاصة، غُفْلًا من المعنى، خارجًا عن المعقول، ووحيدًا. الكون ليس منوطًا بإرادةٍ عليا ولا شريكًا فيها، في أن يكون نفسه، نفسه الحقيقية، في أن يكون مسرحًا لسلطان النار. الكون مجرّد وهم، ولا ذرّة فيه تنتمي للحقيقة، ونحن لسنا ضحاياه فقط، نهوي دائمًا في كوكبٍ أو نُهشَّمنا مقذوفًا بمقلاع شمسه، بل نحن أسراه أيضًا، مقيّدين بحبالٍ معدنيّةٍ من حواسنا».

مشاهدات ثلاثة أيام في بيوجت ساوند، قرّرت المؤلّفة ملاحقتها بعين الكتابة البصيرة. كتابٌ يتأمّل احتراق الكائنات بنار الوجود المقدّسة، إنْ بصورة تهافُتِ عثّةٍ في شمعة أو التظاء وجهِ طفلةٍ في حادث طائرة أو ارتمائنا اليوميّ في ضرام العيش. نثر يشبه الشعر فليس يسلمك معناه بسهولة، مكثّف وعنيف ومصطبغ بروحانيّات التصوّف المسيحيّ ورموزه. وصفٌ تفصيليّ لما يظهر أمامها على سطح الحياة، لأشياء الطبيعة، يختلط فيه الحلميُّ بالواقعيّ مستهديةً باقتباس لرالف والدو إمرسون يُلمِّح فيه إلى أنّ الأيام محضُ آلهةٍ تتعاقب علينا. وعبر ذلك تقارب مشكلة الشرّ في العالم ومعنى المعاناة وموقع المشيئة الإلهيّة من كل هذا؛ وتحاول بجرأة أن تستكشف الغيب وتسائل الجوهر. كتابٌ عن الألم الكامن في الجمال والجمال الكامن في الألم، بحثٌ دؤوب عن ذلك الرباط القدسيّ بين الكائنات.

«في هذا الكتاب قدر عظيم من القوة والجمال والغنى... الطبيعة تُرى ناصعةً وقاسية حتى إنّ العين لتدمع... تأليفٌ نادرٌ ونفيس»
فردريك بيكنر، نيويورك تايمز بوك ريفيو

«لعلّه قد انكتب بحروفٍ من لهب»
ويليام درزويتس، ذي أتلانتيك

Sadak in Search of the Waters of Oblivion, 1812 (oil on canvas), Martin, John (1789-1854) / Southampton City Art Gallery, Hampshire, UK / Bridgeman Images
Cover design: Diana Chamma

ISBN 978-9948-39-147-0
9 789948 391470

روايات
REWAYAT